د. السيد محمد حسين بهشتي

بيئة ظهور الإسلام

دار الروضة

بيئة ظهور الإسلام

بيئة ظهور الإسلام

د. السيد محمد حسين بهشتي

دار الروضة

جميع حقوق الطبع محفوظة

١٩٩٢م ـ ١٤١٣هـ

دار الروضة للطباعة والنشر والتوزيع

المصيطبة شارع المتني ـ بداية فرن ديالا ـ هاتف: ٣٠٥٤٥٢ / ص.ب. ١١/٧٦٨١ بيروت لبنان

MOUSSEITBEH - METNI STR. DIALA BAIKERY BLDG. - TEL: 308452 / P.O. BOX: 11/7681 - BEIRUT

خارطة الشرق الأوسط في عهد هجرة الرسول الأكرم (ص) (عام ٦٢٢ ميلادي)

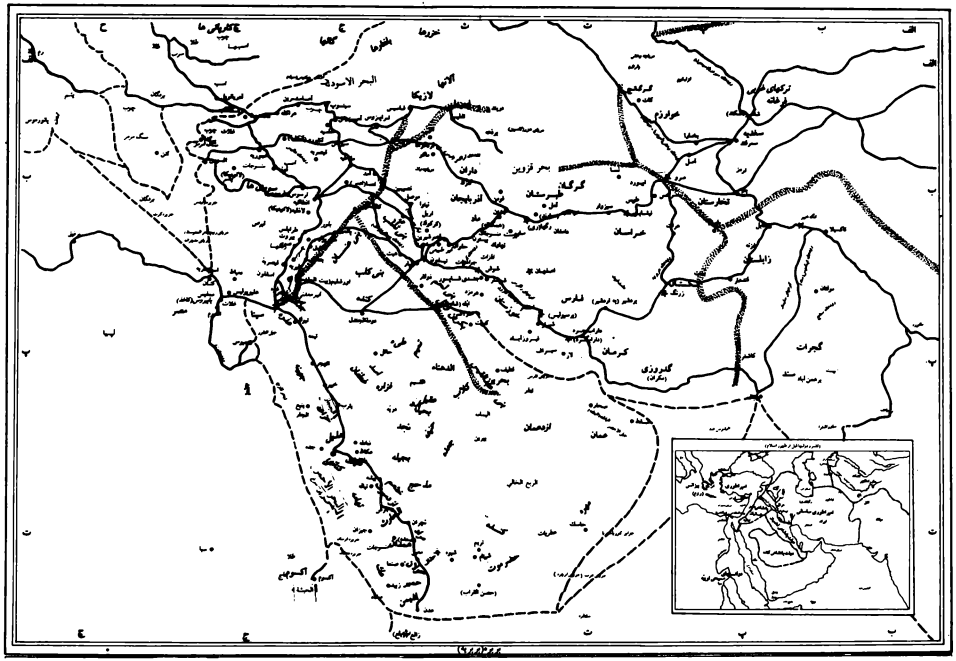

تنويــه

نشكر الأخ العزيز الاستاذ بشير الجزائري على جهوده ودقته في ترجمة هـذا السفر الكـريم، راجين من الله القبـول، ولـلأخ الاستاذ الجزائري دوام التوفيق.

لجنة الهدىٰ

الاسلوب الانسب للمباحث الدينيَّة

موضوعنا هو معرفة الإسلام والمسلمين في العالم.
فما المنهج الجدير ببحثه؟
او ما الأسلوب الأنسب للمباحث الدينيَّة؟

فلا بدَّ لكلّ موضوع من أُسلوب مُناسب لبحثه، فالتحقيق في مرض ما يفرض علىٰ الناهض به دراسة أَعراضه وعلاجه.

وهذا ما يستدعيه إلىٰ وضع عدَّة مصابين بهذا المرض تحت النظر، وإجراء تحاليل مختلفة لهم تشمل الدم والبول والغائط، وتنظيم النتائج الحاصلة، ليتسنَّىٰ له تحديد المرض ممَّ ينشأ وكيف ينشط وبِمَ يعالج؟

ولو انَّ أحداً أعرض عن المختبر والمستشفىٰ المجهَّز بأَحدث الوسائل والخبرات والتجارب المثمرة، ونهض أربعين ليلةً الساعة الواحدة صباحاً، وسارَ في الكواكب متأَمِّلاً وضعها وحركتها ليتبيَّن أعراض مرض ما وكيفيَّة علاجه، لضحك العلم منه أَيَّما ضحك، وقال له: لو أَنَّكَ طالعتَ الكواكب عمرك كلَّه بمئات المراصد الدقيقة، وأَحطت بمواقع الكواكب ومساراتها وطلوعها وأُفولها، لما كشفت عن جرثومٍ، ولا أحطت بعرضٍ من أَعراض المرض الذي أَنت بصدد الكشف عنه، لأنك لم تسلك السبيلَ الخاصَّ بغايتك.

وهكذا شأن من وضع اسطرلاباً بين يديه وأقبل عليه متأمِّلاً إشاراته مدوناً إياها مستبشراً بالكشف عن مرض ما.

وذلك لأنَّ الكشف عن الأمراض له علم مختصٌّ به يحدو صاحبه علىٰ فحص المبتلين بأحدها واستدامة النظر في أحوالهم في أثناء العلاج ومقارنة بعض النتائج الحاصلة من مداواتهم ببعضها الآخر.

ولو أنَّ هيئة طبِّيَّةً عالجتْ عدَّة مرضىٰ أندونوسيين خير علاج، لتعرف عقائد الناس في جزائر أندونوسية قبل ثلاثة آلاف سنة، لضحكنا منها غاية الضحك أيضاً.

فالأديان لا تعرف بعلم الأبدان.

كما أنَّ الابحاث الذرِّيَّة أو الفضائيَّة لا تدلُّنا علىٰ أقوم النظم الاجتماعية وأنفعها، لأنَّه لا يخضع لتجاربها.

وهذه الأمور واضحة وضوحاً يغني عن الدليل علىٰ صحَّتها.

معرفة الدين

ما الاسلوب الأمثل لاستكناه دين ما؟

هو الوقوف علىٰ منابعه الأصليَّة، والنظر فيها نظراً يُوائم العلوم النقليَّة لا التجريبيَّة ولا العقليّة.

أي أُسلوب التحقيق التاريخيِّ المعروف اليوم.

فنقرأ مصادره الأساسيّة، لنعرفه حقـاً سواء اعتقـدنا بـه أم لم نعتقد.

فالسبيل الىٰ معرفة البوذية مثلاً هو أنْ نقرأ مصادرها الاولىٰ، ونقارن بعضها ببعض، ثمَّ نجمع ما خالفها وما وافقها ونتدبَّره، ونزن مالها بما عليها استخلاصاً لحقيقتها من غير نقص لها ولا تعدٍّ عليها.

والسبيلُ الىٰ معرفة اليهوديَّة هو دراسة اليهود اليوم سيرةً وعقيدةً، وتأمُّل اليهودية ظهوراً وتطوُّراً.

وهذا يقتضي العيش في أكنافهم ومشـاهدة أفعـالهم في اليوم والسنة وجمع ما ينشرون بمختلف اللغات ومحادثة أحبارهم، وتنظيم كلِّ ذلك تنظيماً دقيقـاً يكشف عن جوهـر اعتقادهم وانسجـامه مـع سلوكهم كشفاً كاملاً.

كما يقتضي النظر في العهد القديم وتفاسيره وكتابات المؤرخين اليونانيِّين والمصريِّين الذين عاشوا في عصر موسىٰ ـ عليـه السلام ـ

وجمع ما ألَّفه المعتقدون برسالته والمخالفون لها، وقياس بعضه ببعض قياساً يجلِّي حقيقة اليهودية.

ولمعرفة الاسلام ـ بغض النظر عن كوننا مسلمين ـ وسيلتان:

الأولىٰ: أن نعرف ما يعتقد المسلمون وما يعملون.

والثانية: أن نعرف ما جاء به الرسول الأكرم ـ صلّى الله عليه وآله.

وبهاتين الوسيلتين نعرف فعل المسلمين اليوم أو قبل قرن أو أكثر منه.

وإذا أردنا معرفة الإسلام اليوم، وجَبَ علينا السفر إلىٰ أقطاره المختلفة علىٰ نحو ما يفعل الأوربيُّون من زيارة البلدان ومعاشرة أهلها ومناقشتهم فيما يعتقدون ويفعلون، وتدوين ذلك وتصويره وترتيبه، والحكم علىٰ وفقه.

بيدَ أنهم يندفعون في قضائهم، إذ يعمِّمون ما وجدوه في عدَّة مواضع علىٰ ديار المسلمين كافَّة علىٰ الرغم من أنَّ العلم لا يجيز ذلك، فالناس ليسوا كالفلزَّات.

ويعرف الإسلام الذي جاء به سيِّد المرسلين ـ صلَّىٰ الله عليه وآله ـ بالنظر في القرآن والسُّنَّة وكتابات من عاشوا في عصر الرسول الأكرم حتَّىٰ المخالفين له، وتحليل الحاصل ومقارنة بعضه ببعض مقارنة أمينة واعية تهدي إلى حقيقته.

الاعتقاد بالدين

كيف يعتقد الإنسان بدين ما؟

يحدث هذا عندما يوقن الإنسان بأنَّ من جاء بذاك الدِّين هو نبيٌّ، وأنَّ ما يدعو إليه هو وحي إلهي ينير القلب ويحملُه علىٰ التمسُّك به.

وهذا اليقين هو الدَّليل علىٰ صحَّة النبوَّة وصدق النبيّ.

أي أنَّني أومن بالنبيِّ إيماناً ينبعث من اطمئناني إليه اطمئناناً كاملاً من غير حاجةٍ إلىٰ دليلٍ علىٰ صدقه في قوله وفعله.

فأنا أعلم أنَّ قوله حقٌّ، لأنَّه نبيٌّ، لا لقيام الدليل العلميِّ علىٰ صحَّته.

وقبولي كلامه لتوفره علىٰ البراهين الساطعة حسن، لكنه ليس ديناً، ولا يسمَّىٰ إيماناً.

فالدِّين هو أن تقبل كلام النبيِّ لنبوَّته، لا لتعبيره عن حقيقة، ولا لثبوته بالأدلَّة القاطعة.

فالإسلام هو الحق.

واعتقادي بأنّه حق لا ينبع من معرفة علل الأحكام الواردة فيه والمصالح المأمولة منه مهما تجلَّت.

وإنَّما من مجيء محمد ـ صلَّىٰ الله عليه وآله ـ به.

والالتفاتُ إلىٰ فوائد غسل الجنابة الروحية والبدنية حسن جداً، لكن الاغتسال من أجلها ليس أداء للتكليف الشرعيّ.

فالأداء هو أن تغتسل استجابة لما جاء به الرسول الأكرم ـ صلَّىٰ الله عليه وآله ـ لا لشيءٍ آخر.

وإنَّما نستجيب له، لأنه نبيّ.

هذا هو الفكر الديني، وما عداهُ ليس فكراً دينيّاً، سواء صحَّ الدِّين أم لم يصح.

فالمسلم يغتسل الجنابة طاعة لله ورسوله، لا لمصلحةٍ أعلنها الطِّبُّ.

وإذْ تسألُ اليهوديَّ: لِمَ لا يعملُ يوم السبت يقول: امتثالاً لقول موسىٰ.

ومثل هذا لا يقال عنه جاهل، لأنَّ هذا القول غلط.

فالنهج الصحيح في الاعتقاد أن يخطو بعقل، فيفكِّر جيِّداً، ثمّ يعتقد بوجود الله تعالىٰ ـ علىٰ وفق آياته الهادية إليه.

وهكذا يعتقد بنبوَّة إبراهيم أو موسىٰ أو عيسىٰ أو محمد ـ عليهم السلام.

ولا بُدَّ من العقل في الاعتقاد بالله ـ تعالىٰ ـ ونبيٍّ من أنبيائه ـ عليهم السلام ـ فمن فكَّر انفتح قلبه للإيمان.

وعندئذ لا حاجة إلىٰ دليل علميٍّ أو عقليٍّ علىٰ صدق النبيِّ، فنبوَّته هي الدليل.

ومن لم يستطع الإيمان بأنَّ هؤلاء أنبياء الله مع وجود البراهين الكافية علىٰ نبوَّته فقد احتبس عند الخطوة الأولى.

فالأدلَّة العقليَّة موضعها الاعتقاد بالربوبيَّة والنبوَّة.

أما ما عداهما، فدليله نقليّ، فإذا قيل مثلاً: ما الدليلُ علىٰ أنَّ لحم الخنزير حرام؟

قلنا: النصُّ عليه في هذه الآية الكريمة وتلك.

فهذا دليل كافٍ، وبه تتحقَّق الغاية.

وإذا سُئل: ما الدليل علىٰ أنَّ في الإسلام نظام حكم؟

قلنا هو الحديث الشريف المذكور بهذا الإسناد مثلاً في حادثة كذا إضافة إلىٰ هذه الآية وتلك.

أو نقول: الرأي الفلانيّ غلط في الإسلام، لمخالفته آية كذا أو حديث كذا.

أي أنَّه لا مجال هنا للأبحاث العقلية كعلم الاجتماع.

إلّا أننا نستطيع البحث في فهم كلٍّ حكم من أحكام الإسلام، فكثيرٌ منها فهم فهماً سيِّئاً أو لم يفهم أصلاً.

فكلُّنا نقبل الذِّباحة، لكنَّا لا نعرف صورتها على ما أراد الإسلام.

وقولنا: إنَّ صيغة عقد الزواج واجبة لدعوة هذه الآية أو ذاكَ الحديث إليها دليلٌ كافٍ علىٰ وجوبها، لكنَّه لا يعلِّمنا هذه الصيغة التي يجب أن تفهم في الزواج فهماً كاملاً.

ففهم صيغة العقد غير الدليل علىٰ وجوبها.

وميدان البحث مفتوح لفهم هذه الأمور وتحديد ما ورد بشأنها في الكتاب والسُّنَّة.

والمسألة الثالثة معرفة المصالح أو البدائهِ في أحكام الإسلام أو غيره.

ففي تحريم الخمر مجال للفهم الحرِّ واستكشاف المصالح الكامنة فيه.

بيد أنَّنا لو كشفنا عن ألف فائدةً وفائدة لتحريم الخمر، لما كانت دليلاً عليه في الاسلام، لأن دليل تحريميها هو القُرآن والحديث، لا معرفة منافع التحريم ومضارِّ التناول.

وهذه صفوة ما تقدَّم:

١ ـ لمعرفة دين ما معرفة صحيحة علينا قراءة مصادره الأساسية والنظر فيها بأسلوب التحقيق التاريخيّ لا التجريبي ولا الفلسفيّ.

٢ ـ للاعتقاد بدينٍ ما يجب الاعتقاد أوَّلاً بالله والرسول علىٰ وفق البراهين العقلية الكافية، وفي المرحلة الثانية يتَّخذ ما جاء به الرسول ديناً بلا حاجة إلىٰ دليل.

وكلُّ سبيل للاعتقاد غيرُ هذا لا قيمة له.

٣ ـ لفهم المقاصد الإسلامية فهماً سليماً نطبِّقُ أحكام الإسلام علىٰ الحياة الاجتماعية والشخصيَّة.

وهذا مجال مفتوح أيضاً لفهم شرائع الإسلام أو غيره من الأديان.

٤ ـ الإنسان حرٌّ في استكناه الفوائد في أحكام دينه والصدع بها، غير أنها لا تكون دليلاً علىٰ صحَّة هذه الأحكام مهما كثرت وتجلَّت.

كما أنَّ استكشاف أضرار في الأحكام لا يكون دليلاً علىٰ بطلانها.

ولو انتهجنا سبيلاً غير هذا لعدلنا عن الحقِّ.

فلا تسعنا البرهنة علىٰ أنَّ الإسلام أو اليهوديَّة أو الزرادشتيَّة على حقٍّ بالبحث عن أهميَّة النار في الفيزياء والتجربة والحياة، لنقول بعدئذٍ: إنَّ الزرداشتيَّة مثلاً حق بناءً علىٰ ضرورة النار في الوجود. فهذا انحراف.

تتمَّة

مـا يجب علىٰ من أراد آختيـار دين مـا وهـو يبـحث عـن الأحسن؟

إتماماً لما تقدَّم يجب القول هنا: إنَّ كلَّ الأحاديث عن الكفر مباحة ولا منع فيها.

فلو قال قائل: ماذا أفعل لاختيار دين لي؟

لقلنا له: امضِ حقِّقْ في أديان العالم، ثمَّ قس بعضها ببعض، تعرف أحسنها، وهو المطلوب.

لكن هل هذا التحقيق واجب؟

وإذا كان واجباً، فهل يسعه عمر الإنسان؟

ليس هذا البحث المضني واجباً، فحسب الإنسـان المراحـل التي ذكرناها في البدء.

فالخطوة الأولىٰ أن يعرفَ هل أنَّ من أراد الاعتقاد بنبوَّته هو نبيٌّ لله حقَّاً؟

وهل الله أساساً موجود، ليكون له نبيٌّ أو لا؟

وهذا مشترك بين الأديان الإلاهيَّة.

ولأنَّ الدين الآن يذكر بمعناه الأعمِّ، ولأنَّ الأديـان لها أنبيـاء يدعونَ إلىٰ الله نقول: هذه هي الخطوة الأولىٰ.

فـإذا أيقن الباحث بـوجـود الله علىٰ حسب البـراهين العقليَّـة

الكافية، فلا أثر لمقايسة الأديان في يقينه، فغايته هي الثقة بوجود الله، والاطمئنان إلىٰ كون هذا الدَّاعي إليه نبيًّا أولا.

فإذا علمت بوجود الله، وأنَّ هذا العبد من عباده رسوله إلينا وجب عليَّ اتِّباعه.

ولو جاء بعد ذاكَ النبيِّ نبيٌّ أَحسب أنَّه من الله أيضاً يجب أن أُحقِّق في شأنه وأتأكَّد منه، فإذا كان علىٰ حقٍّ لزمني تقديمه علىٰ السَّابق والتحوُّل إليه.

أمَّا النَّبيُّ الذي لا نبيَّ بعده، فلا داعي للتحقيق في شأن المدَّعي بعده.

فإذا آمنوا بنبيٍّ علىٰ وفق البراهين الكافية، وأخبرهم أنَّه لا نبيَّ بعده، لم يجب عليهم الالتفات لمن آدعىٰ النبوَّة بعده ما داموا مطمئنِّين إلىٰ أنَّ الأوَّل هو خاتم الأنبياء.

ولو قيل مثل هذا، فسبيله أيسر وأدنىٰ من الأوَّل.

إذن ليست مقارنة جميع الأديان بعضها ببعض ومعرفتها كلَّها واجبة، وليست ميسورة ولا تُجدي كثيرا.

جواب عن سؤال آخر

معرفة الله سهلة ـ علىٰ وفق ما تفضَّلتم به ـ لكنَّ كلَّ دين ومذهب يوضحها للناس علىٰ نحو ما.

ولمعرفة الإله الحقِّ يجب أن نصل إلىٰ الرسول الحقِّ، والوصول إليه في الوقت الحاضر ليس سهلاً مع أنَّ قوله بأيدينا، ومع علمنا بصحَّته.

فما العمل؟

كلُّ من أراد الاعتقاد بدين، وجب عليه النَّظر فيه سهل أم صعب.

أي يجب عليه البحث، ليرىٰ مثلاً هل كان لعيسىٰ المسيح وجود حقّاً أو لا؟

وإذا كان له هذا الوجود، فهل كان نبيّاً أو لا؟

وحسبه أن يعرف أنَّه نبيٌّ.

وعليكم أن تبحثوا عن شيء واحد فقط هو النبوَّة.

فإذا علمتم أنَّ موسىٰ أو عيسىٰ أو محمداً نبيٌّ، لزمتكم معرفة كلامه والعمل علىٰ وفقه.

وليس علينا الآن معرفة اللازم من كلامه، لأنَّها ليست ميداننا الأوَّل.

وابتغاءَ معرفة أنَّ محمَّداً رسول يجب أن ننتهج التحقيق التاريخيَّ.

فعلىٰ الانسان أن ينعم النظر في المصادر التاريخيَّة الكافية ليستطيع الإيمان بوجود محمد وشروق نبوَّته قبل ألف وأربع مئة سنة.

ولا سبيلَ إلىٰ هذا الإيمان سوىٰ التحقيق التاريخيّ.

من أين نبدأ؟

يستطيع الإنسان البدء في النظر إلىٰ أُصول الدِّين من ضياءين: الله والرسول.

وكثيرٌ من الناس يبدءون من الرسول.

فيرون محمَّداً إنساناً ذا قوى غير مألوفة، ويؤْمنونَ بأنَّه يرتبط بقوةٍ فوق البشر بعثته داعياً إليها دالاً عليها.

وتلك القوة المسيطرة هي الله.

هكذا يعتقد الكثير.

في زمن رسول الإسلام كان عدةٌ من الناس يتفكَّرون في الله، ومن هؤلاء سلمان الفارسيُّ الذي كان يسيح في البحث عن الله إذ رأىٰ المعارف الشائعة عنه خرافاتٍ وأوهاماً.

ولمّا سمع بظهور نبيٍّ في مكَّة يدعو إلىٰ الله اتَّجه إلىٰ هناك، وشاهده واستمع إليه فرأىٰ كلامه يليق بالرِّسالة ويشهد له بالنبوَّة الحقّ.

إلاّ أنَّ إيمان أُولئك بالله كان قبل علاقاتهم للرسول.

وكان هناك من لم يُؤمنوا بالله من المادِّيِّين الذين يرفضون الإيمان بالله أصلاً، بيد أنَّ لقاءهم للرسول واقترابهم منه بدَّ لهم جملة وتفصيلا، فآهتدوا به إلىٰ الله.

وطبيعيٌّ أن يستقلّ فكر هؤلاء بالله فيما بعد ويرتبط به حقّاً مع أنَّ أوَّل قاعدة منه أقامها الرسول نفسه.

فأصل الاعتقاد بالله وعدم الاعتقاد به يحظيان بأمثلةٍ في حياة من عاشوا في عصر رسول الإسلام.

وبمعرفة الأديان ومقايسة بعضها ببعض نستطيع ترجيح أحدها علىٰ الآخر، والقول إنَّ ما فيه ينسجم مع ما لدينا من أدلَّة، إلّا أنَّ هذا لا يكفي أيضاً للقول بأنَّ فلاناً نبيٌّ.

لأنَّ نبوَّة النَّبيِّ لا يمكن إثباتها بقيمة التعاليم الإلهية العالية، فهل يكون نبيّاً من جاءنا بتعاليم حسنة؟

هل يكون كلامه وسيلةً للإيمان؟

قالت فئةٌ من كبار الفلاسفة الذين لا يعتقدون بالله أقوالاً حسنة في هذا الشأن، فهل كان هؤلاء أنبياء؟

هذا حين لم يدَّعوا بالنُّبوَّة، فكيف اذا ادَّعوا بها؟

فاستقامة الرأي وجودة الفكر ليستا دليلاً علىٰ النُّبوَّة، لأنَّنا عندما نتَّخذ أحداً نبيّاً ننظر في سيرته وسوابق حياته، فإذا رأيناه يتمتَّع بمزايا معنويَّة وفكرية وروحيَّة فائقة يمتاز بها من الناس، قلنا: إنَّه جاء بها من منبع لا نظير له، فهو نبيّ.

علىٰ هذا الأساس اتَّكأ القرآن علىٰ أُميَّة الرسول كثيراً.

ومن هنا يجب القول بأنَّ الاعتقاد بالله وبالرسول متلازمان أبدا، فلا يقال أيُّهما أسْبَق.

فإذا اعتقدنا بربٍّ ورسول كان قول ذلك الرسول سنداً لنا، لكنَّ هذا يستدعي أن نعرف الأديان كلَّها ونقيس هذا بذاك.

وبهذه المقدِّمة نصل إلىٰ الموضوع الأصيليِّ، وهو (معرفة الإسلام والمسلمين في العالم).

وتمكن عنونته (الإسلام والمسلمين).

مولد الإسلام

من أجل أن نعرف الإسلام لا بدَّ لنا من معرفة البيئة التي أشرق فيها وانتشر، لأنَّ معرفة هذه البيئة لها أثر كبير في معرفته أحسن معرفة.

ونحن يمكن أن نعرف شيئاً ما معرفة سطحيَّة دون أن نعرف جهة تعلُّقه وأحواله، غير أنَّ المعرفة العميقة لكلِّ موجود مرتبطة بالبيئة التي وجد فيها ونمط وجوده، حتَّىٰ إنَّ هذا الحكم يشمل معرفة النفوس والظواهر الصناعيَّة والفنِّيَّة والاجتماعيَّة.

ولهذا كانت معرفة البيئة التي أشرق فيها الإسلام معرفة عميقة لازمة لمعرفته.

وربما يبدو من قولنا: بيئة الإسلام أو بيئة ظهوره أنَّ المراد هو مكة مثلاً، أو مكَّة والمدينة، أو هما والطائف، أو الحجاز، أو شبه الجزيرة.

ولكن بالالتفات إلىٰ بداية الدعوة في مكَّة علىٰ يد الرسول الأكرم وقبل انتشارها إلى المدينة نراه بدأ دعوته علىٰ هذا النحو:

تعالوا إلىٰ دين يستوعبكم ظلُّه فيضمَّ الفرس والروم والحبش والناس جميعاً.

هذه هي الدعوة التي بدأها الرسول، وشمل بها العالم المتحدِّث في ذلك العصر.

ففي سنوات الهجرة الستِّ الأولىٰ بعث الرسول بكتب إلىٰ

خسرو يرويز ملك الفرس وهرقل ملك بيزنطية والمقوقس ملك مصر والنّجاشي ملك الحبشة والحارث الغساني ملك الشام والمنذر ملك الحيرة.

وهذا مسجل في التاريخ، أي أنه كتب إلىٰ هؤلاء يدعوهم إلىٰ الإسلام.

وهو يبيِّن لنا أنَّه لا ينبغي لنا التوقُّف عند مكَّة والمدينة والطائف أو بلاد العرب إذا أردنا أن نعرف البيئة التي ظهر فيها الإسلام، وإنّما لا بدَّ من معرفة الممالك التي دعاها الرسول إلىٰ الإسلام إضافة إلىٰ ذلك في الأقلِّ.

موجز عن شبه الجزيرة

يطلق هذا الاسم علىٰ البلاد التي يسكنها العرب.

وبلاد العرب في زمن الرسول لم تكن علىٰ سعتها اليوم، فقد كانت محدودة بخليج فارس علىٰ ما هي عليه اليوم.

ومسيخات ساحل هذا الخليج كان اللسان العربي يسودها سيادته لها اليوم.

وكان ما بين إيران ودجلة غير عربي اللسان، اذ كان المنتشر فيه اللسان الكرديُّ والفارسيّ والسنة محلية، بينما يهيمن اللسان العربي علىٰ الجانب الغربي لدجلة.

والعرب الذين في بلاد الخوز اليوم هم من الذين هاجروا إليها بعد الإسلام، ولم تكن عربية اللسان حينئذ.

وفي الشمال أي: الشام الكبرىٰ اليوم استقر قسم من المهاجرين إليها في زمن الإسلام، وسنتحدَّث عن هذه الهجرة متىٰ حصلت.

وما كان اللسان العربيُّ سائداً الشام سيادته اليوم، فقد كانت جماعة من العرب تستلفت النظر قد هاجرت إلىٰ وادي الأردن.

مع هذا يجب القول إنَّ سكنىٰ العرب قد اتَّسعت في الشِّمال، وامتدَّت إلىٰ تركية في حين لم يكن لسان سورية ولبنان اليوم عربيّاً، حتَّىٰ الأردن لم يكن لسانها العام عربيّاً، إذْ لم يكن يتكلَّمه إلاّ المهاجرون العرب.

ويتسنَّىٰ القول علىٰ هذا: إنَّ الأردن في ذاك الزمان كبلاد الخوز الحاضرة التي تتكلم فئة منها العربية وفئة الفارسية.

أمَّا في المغرب الذي يضمُّ قسماً كبيراً من إفريقية، فما كان اللسان العربي، فلا مصر والسودان والصومال وليبية والجزائر وتونس والمغرب وقسم من الحبشة كانت تتكلم العربية.

فبلاد العرب في ظهور الإسلام بناء علىٰ انتشار لسانهم كانت محدودة بخليج فارس وبحر عمان وبالبحر الأحمر الذي ما كان ساحله الغربيُّ يعرف العربية، ولم يكن شمال وادي الأردن يعرف العربية أيضاً.

وكان غرب دجلة هو الحدَّ الشرقيِّ للسان العرب في شمال الجزيرة وما فوقه.

هذه هي بلاد العرب عند ظهور الإسلام.

ونحن جديرون بالتنبيه علىٰ أن أمكنة هي اليوم عربيَّة اللسان، ومنها سورية ولبنان والاردن وجزء من افريقية إضافة إلىٰ ما بين النهرين كان لسانها ساميًّاً.

أي أنَّها كانت تتكلَّم لساناً يشارك اللسان العربي في الجذور علىٰ النحو الذي يشارك فيه اللسان الفارسي الألماني أو الهندي السانسكريتي فيها.

فالصومالية والحبشية والمصرية المحلية كانت عبرية حتىٰ في جزء من الأردن.

فيما كان اللسان العام لسورية ولبنان اليوم فينيقياً.

بينما ينتشر اللسان الكلداني والآشوري في مناطق أُخرىٰ.

وهذه الألسنة الساميَّة ومنها العربي متشابهة في الخطِّ والصيغ والألفاظ.

ذكر جرجي زيدان في كتابه تاريخ التمدن الإسلاميِّ أنَّه إذا سافر أحد من بلاد العرب إلى الحبشة،أو من الأردن ولبنان إلى الحجاز ما كان يحسُّ بالغربة.

وعلىٰ حدٍّ قوله: ما كان يحتاج إلىٰ مترجم، فالألسنة كانت متقاربة ما عدا أشياء يسيرة كانوا يحفظونها بسهولة كما لو ذهب فارسي إلىٰ كردستان وبقي فيها مدَّة قليلة، لفهم لسانها.

فالمنطقة التي تسودها العربية اليوم كانت فيها ألسنة ساميَّة تشارك العربية في الجذور وأشياء كثيرة تسهِّل الفهم علىٰ هؤلاء وهؤلاء.

كان سكان شبه الجزيرة العربية التي لا تختلف عن موقعها اليوم فئتين، هما: العرب القحطانيون، والعرب العدنانيون.

وكان موطن القحطانيين هو اليمن التي كانت تشمل عدناً الحاضرة ومسيخات الخليج الفارسيّ وعُمان.

فيما كان العدنانيّون يسكنون نجداً والحجاز.

وكلتا الفئتين ترجع إلىٰ أبٍ واحدٍ.

ولكم أن تتصوَّروا أُسرة عربيَّة كبرت طوال ثلاثة آلاف سنةٍ، حتّىٰ أصبحت فئتين: إحداهما نزلت إلىٰ اليمن، والأُخرىٰ صعدت إلىٰ مكة وبنتها، فأبناء إسماعيل الذين في أجدادهم اسم عدنان دعو به.

وقد حظي القحطانيُّون بالنعيم في اليمن التي كانت خيراً من مكَّة ونجدٍ طبيعة، فهواؤها أطيب وماؤها أعذب، ورطوبتها ألطف، وأرضها أنمىٰ.

ولهذا نشأت فيها المدنيَّة بسرعة، وظهرت فيها الصناعة والحياة

الناعمة المستقرَّة سابقة الحجاز ونجداً في هذا الميدان بعدة قرون.

ويجب الالتفات إلىٰ تأثير البيئة ها هنا في فئتين أصلهما واحد ولسانها واحد وخصائصهما واحدة، فقد ذكر المؤرِّخون أنَّ القحطانيِّين لم يسبقوا إخوانهم العدنانيِّين في الاستقراء وتمدين المدن وإحياء الأرض فحسب، بل سبقوهم حتَّىٰ في إقامة الحكم ونظامه بعدَّة قرون، وسنوضح ذلك فيما بعد.

فقد حكم الحميريُّون اليمن حكماً ملكياً ينتقل التاج فيه من كابر إلىٰ كابر في حين لم يكن النظام الاجتماعيُّ في الحجاز قد خرج عن دائرة القبيلة.

وقد ذكر اليعقوبي المؤرخ الإسلامي الكبير أنَّ التاج الذي توارثه ملوك اليمن كان فضَّة وفي وسطه ياقوتة كبيرة جداً، وأنَّ هذا كان قبل أن تعرف الحجاز الحكومة بعدَّة قرون.

وكان سدُّ مأرب الشهير من عجائب السبق الحضاري التي أبدعها العقل القحطاني قبل أن يعرف العدنانيُّون معنىٰ العمران بعدَّة قرون.

وذكر مؤرِّخ أنَّ طول هذا السدِّ ستة كيلومترات، وكان بين جبلين يحجب المياه التي تجتمع من السيول في بحيرة واسعة، وكان ذا بوابات متحرِّكة كلٌّ منها فيها سبعون نافذة كلُّ نافذة تسقي سبعين منطقة.

وقد صُنع هذا السد قبل الإسلام بثمانية قرون، وقبل الميلاد بقرنين.

وإنما ذكر هذا لنعرف إمكانات البيئة والعصر اللذين أشرق

فيهما الإسلام، ولنعرف الفرق بين اليمن والحجاز التي ظهر فيها الإسلام.

وكان لسدِّ مأرب أثر كبير في ظهور اليمن وعمرانها، فقد شيدت إلىٰ جنبه مدينة مأرب التي كتب عنها السائح الرومي اللامع الاسم في التواريخ الأوربيَّة متحدِّثاً عن عجائبها وعظمة قصورها وتناقل المؤرخون ذلك عنه.

وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ مأرب مدينة سياحيَّة تستهوي القلوب إليها، وظلَّت قائمة إلىٰ ما بعد الميلاد بقرنين.

وفي مطلع القرن الثاني للميلاد استسلم السد لكفِّ الدمار.

وما يستحقُّ الانتباه في خرابه هو أنَّ المؤرِّخين كتبوا أنَّه نشأ من عدم قيام الحكومات المترفة برعايته قياماً يحفظ عليه دوامه.

أجل لانشغال الحكومات الخاملة بالملذات نسيت ما كان يطلب منها ومنه حفظ ذلك السدِّ الذي اعتراه الخراب بداية القرن الثاني قبل الميلاد، وظلَّ يغالبه إلىٰ أن أدركوا أنَّه سينهار في عشر أو عشرين سنة، فساد القحطانيّين خوفان:

أولهما أنَّه إذا انهار لم يبق بعد أثرٌ من الزراعة وحفظ المياه والانتفاع بالأرض الطيِّبة.

وثانيهما أنَّه سيطوي كلَّ ما يواجهه من العمران وسيغمر البيوت وسواها بدماره.

فهاجر عرب اليمن من جرَّاء ما انتابهم من الخوف والقلق علىٰ مصيرهم، فاتجهت طائفة منهم إلىٰ العراق، وأسسوا حكومة المناذرة في ضفاف الرافدين التي ظلَّت تدفع ضريبة الأرض لملوك الفرس الذين كانت لهم السيطرة في ذلك العصر.

واتجهت الطائفة الثانية إلىٰ الأردن الحاضرة التي لم تكن عربية حتَّىٰ ذلك الوقت، وأقاموا فيها حكومة الغساسنة التي ارتبطت بالروم منذ البدء.

وبمرورهم علىٰ يثرب، أي: المدينة المنوَّرة التي كانت موطن اليهود في ذلك الزمان استقرَّ فيها قبيلتان هما الأوس والخزرج، واستعمرتا ما فيها من ماء وأرض طيبة.

ومن هنا سيكون لنا حديث عن اليهوديَّة والإسلام.

كما استقرَّت قبيلة خزاعة في مكة بين العدنانيين، وظلَّت تنازعهم، حتَّىٰ غلبتهم علىٰ مقاليد مكَّة.

واستولىٰ بنو عديّ علىٰ نجد وقسم كبير من الصحراء.

وما أجدرنا بالنظر في شأن شعب متحضر مدَّن ونظم الحياة، ثم شرَّده الخوف من حادثة مُرَّة، فتفرَّقت طوائفه في البلدان، وحكمت كلٌّ منها البلد الذي صارت إليه بما لديها من مهارة وفطنة، فدانت لهم البوادي والحواضر.

ولم يبقَ في اليمن من القحطانيِّين إلّا العاجزون أو من قالوا لأنفسهم: لا يدرىٰ متىٰ يحلُّ الخراب هنا، وربما لا يحلُّ أصلاً، فلما نمضي بلا فائدة.

وبقي اولئك الخائبون حتّىٰ انهار السدُّ أواخر القرن الثاني للميلاد وأهلكهم بسيل العرم المعروف.

وتلك عاقبة البلادة التي لخَّصها القرآن الكريم في سورة سبأ[1].

فوضع العرب في القرن الثاني للميلاد علىٰ ما مرَّ معنا هو قيام

حكومة في الأردنِّ في جوار الروم وقيام حكومة في العراق في جوار الفرس، ومجاورة طائفة لليهود في يثرب، وعيش طائفة أُخرى العدنانيين في مكة وما جاورها.

هذا هو شأنهم قبل ظهور الإسلام بأربعة قرون.

الوضع الثقافي

يجمع المؤرِّخون أنَّ أعلىٰ درجات الثقافة العربيَّة هي ما تجلَّت في القرن الأول قبل الإسلام الذي ازدهر فيه الشعر، وما كان قبله متقدِّماً في العرب حتىٰ إنَّ أحد المؤرخين ـ وهو اليعقوبي[1] ـ كتب أنَّ الشعر كان في موضع العلم والحكمة والفلسفة والتاريخ وسائر الأشياء.

فما من أحد تمرُّ في باله فكرة إلا عرضها في ثوب من الشعر.

والخلاصة هي أنَّه اذا سألنا سائلٌ: ما ثقافة العرب آنذاك؟

نقول: عدَّة أشعار.

فقد كان العرب شعباً شاعراً.

ولأنَّ الشعر كان مِرْآةَ الثقافة وأَرْقىٰ مظهر من مظاهرها كان الشعراء يبحثون عن المكان الذي يعرضونه فيه، ويختار الأجود منه ليعلَّق في جدار الكعبة، حتَّىٰ شاع بينهم اسم المعلَّقات ويحظىٰ شاعر المعلَّقة بالشهرة.

فامرؤ القيس وأمثاله جمع خيار قصائدهم، فكانت المعلَّقات السبع.

أمَّا نبع المعرفة الثاني بعد الشعر، فهو التعاليم اليهوديَّة التي سنوضحها بنحو مرتَّب.

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ١/٢٦٢.

الوضع الاقتصادي

كان اقتصاد العرب معتمداً علىٰ الرَّعي والزراعة.

وأهمُّ أركانه التجارة الخارجيَّة التي كان عرب اليمن وعرب الحجاز يمارسونها.

ولارتباط التجارة الخارجيَّة بالتجارة الداخليَّة كان لا بد لهم أن يكونوا مستوردين يعرضون ما يحتاج إليه في أسواقهم، أو مصدِّرين يجلبون ما يزيد علىٰ حاجتهم إلىٰ أسواق غيرهم.

أي أنَّهم يفعلون ما يفعله المتحضِّرون اليوم.

فأهمُّ أمر وأثمنه وأكثره حساسية في عصر التقدُّم هو ما ارتبط بالاقتصاد، ومنه إيجاد المعارض التجارية والصناعيَّة التي كان للعرب اليد الطُّولىٰ فيها، وكانت تدعىٰ المواسم.

فقد كانوا يقيمون مواسمهم علىٰ حسب الفصول والمدن المناسبة، وكان من أسواقهم في الجزيرة والحجاز ونجد:

١ ـ سوق دومة الجندل: وتقيمها الغساسنة والكلابيّون في شهر ربيع الأول.

٢ ـ المشقَّر: وتقيمهاتهيم في شهر جمادىٰ الأولىٰ بهجر.

٣ ـ اصُحار: وتقام في قرية باليمن تنسب إليها الألبسة وذلك أوَّل رجب.

٤ ـ ريّا: وتقام بعد صحار في الشهر نفسه.

٥ ـ عَدَن: وتقام في اليمن أوَّل شهر رمضان، وكان مختصَّاً ببيع العطور.

٦ ـ صنعاء: وتقام في منتصف شهر رمضان.

٧ ـ الرابية: وتقام في حضرموت، وكان من عزَّ فيها بزَّ، وكانت كندة تخفر فيها.

٨ ـ عُكاظ: قرب الطائف، ويقام في ذي القعدة.

٩ ـ ذي المجاز: بعد انتهاء المواسم جميعاً يدور التجّار ويأتون إلىٰ مكَّة يحجُّون ويقيمون معرضهم في ذي الحجَّة، وبانقضائه ينصرفون[1].

وكانت هذه المعارض الموسميَّة أهم ظاهرة اقتصاديَّة وأثمنها وألطفها في بلاد العرب في ذلك الزمان.

وكان التجَّار المشاركون في تلك المعارض يسعون ألّا تكون باردة، فمن عادتهم الاستمتاع فيها والانغماس في الموسيقىٰ والطرب وفنون ذاك الزمان، واستعراض الآثار الأدبيَّة وأحسن الشعر.

فالمعارض كانت لمن يرغبون في البضائع الجديدة في جانب، ولمن يرغبون في رؤية أحسن شاعر في جانب أو سماع أحسن لحن أو عزف.

أي أنَّ الشعراء أيضاً كانوا يأتون لعرض أشعارهم والاستماع إلىٰ رأي النُّقاد فيها، فالمواسم كانت معارض تجاريَّة وأنديَّة أدبيَّة في وقت واحد.

---

(١) هذه الأسواق في تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠ المترجم.

الدولة في الجاهليّة

يقول علماء الاجتماع: في ذاك الزمن الذي كان الإنسان يعيشُ فيه وحيداً لم يُرد أن يكون فوقه أحدٌ، فهو سيِّد نفسه وفتاها، وهو الحاكم، والمحكوم والحكومة.

وبعد خروج آدم من الوحدة وحصوله علىٰ زوج وأطفال، وصيرورتهم أربعة نفر أصبح الحديث عن رئيس الأسرة وخصائصه وما للمرءوسين وما عليهم.

يقول علماء الاجتماع كانت رئاسة الأسرة في أكثر أنحاء المعمورة للأب، وفي أقلِّها للأم، وبتعدد الأسرة دخلت الحياة مرحلة أعلىٰ، إذ خرجت من طور الأسرة إلىٰ طور القبيلة، وصار النظم إلىٰ الوجيه والكفو وشيخ القبيلة الذي بيده الحلُّ والفصل.

وبآجتماع القبائل وانضمام بعضها إلىٰ البعض نشأت حكومة القوم تدريجيّاً، واستمرَّت الحياة في الصعود بآتِّجاه حكومة الشعب.

وحين تعدَّت الحياة القبيلة، وعاشت قبائل معاً لا تعرف أجدادها المشتركين ولا أواصر القُرْبىٰ فيما بينها رأتْ أنَّه لا بُدَّ لها من الالتئام والوئام من أجل حفظ النظام الاجتماعيِّ الذي بات ضرورة ماسَّة للجميع، فظهرت الدولة.

وكانت بداية ظهور الدولة علىٰ ما يذهب إليه المؤرِّخون والاجتماعيُّون في الوقت الذي عاشت فيه قبائل شتى في منطقة واحدة

اشتركت منافعها فيها، فكان لا بدَّ من هيئة تتولَّىٰ تنظيم أُمورهم وحماية مصالحهم، وكانت تلك الهيئة هي الدولة.

وأشدُّ المراحل التاريخية حساسية من وجهة النظر السياسيّ هي مرحلة التحوُّل من مشيخة القبيلة والقبيلة إلىٰ مرحلة الدولة.

ومع إدراك هذه الحساسية الشديدة كانت الحكومة قد ظهرت في اليمن قبل الإسلام بعدَّة قرون وهكذا لدىٰ الغساسنة والمناذرة.

إلاَّ أنَّها لم تشاهد حينذاك في الحجاز ونجد.

وعرض المسعوديُّ لنوع الحكومة في ذلك الزمان، فقال: «وكان للعرب حكّام ترجع إليها في أمورها، وتتحاكم في منافراتها، ومواريثها، ومياهها، ودمائها، لأنَّه لم يكن دين يرجع إلىٰ شرائعه، فكانوا يحكمِّون أهل الشرف، والصدق، والأمانة، والرئاسة، والسنِّ والمجد، والتجربة»[1].

وعدَّ اليعقوبي طائفة كبيرة من أسماء اولئك الذين عرفوا بالحكومة في زمانهم.

ولم يكن أولئك رؤساء حكومات، وإنَّما كانوا حُكَّاماً يقضون في نزاعات الناس، ويحلُّون مشاكلهم.

ونلتقي بالحكومة في بلاد العرب الوسطىٰ أي: الحجاز ونجد فيما ذكره أحد كتَّاب تاريخ اليهود، وهو أنَّ أبا كرب ملك اليمن في القرن الخامس الميلاديِّ أي قبل الإسلام بمئة سنة نصب ابنه حاكماً

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ١/٢٥٨.

علىٰ يثرب، فإدارتها كانت مرتبطة باليمن، وعليه لا يقال: الحكومة في المدينة.

فالحكومة إذن كانت في أطراف الحجاز ونجد لا فيهما كحكومات الغساسنة والمناذرة والقحطانيِّين ودولة من كانوا علىٰ ساحل الخليج الفارسي الغربي.

اليهود

لمعرفة تاريخ الإسلام الدقيقة يجب أن نعرف دور اليهود والنصارىٰ في بلاد العرب.

وليس معلوماً متىٰ هاجر اليهود إلىٰ اراضي العرب، غير أن صاحب تاريخ اليهود ذكر أن لعوامل هجرة اليهود إلىٰ بلاد العرب وشبه الجزيرة العربيَّة عقائد شتَّىٰ.

ولا ريب في أنَّ كثيراً من اليهود فروا من بلادهم إلىٰ ديار العرب من ظلم الحكام الروم.

ولئن لم يحظَ اليهود بالراحة في فلسطين وأوربَّة، فإنَّهم نعموا بطمأنينة وسلام بين العرب، فقد وجدوا التكريم وحسن الجوار في ارضهم بدلاً من تهديد القساوسة وأذاهُم.

ومن المسلَّم به أنَّ عدَّة من اليهود هاجرت إلى الحجاز ونجد لبعدهما قبل ظهور الإسلام بعدَّة قرون.

وفي احتمال قويّ أنَّ هذه الهجرة اقترنت بظهور المسيح أو القرنين الثاني والثالث لظهوره.

وعلىٰ ما في التواريخ الموجودة، فإنَّها حدثت قبل الإسلام بخمسة قرون في الأقلِّ، يعني أواخر القرن الأوَّل للميلاد، إذ بدأت هجرتهم إلىٰ الحجاز لإمكان العيش فيها بعيداً عن جور الروم.

وأهمُّ مركز يهوديٍّ كان هو المدينة المنورة التي كانت تسمَّىٰ يثرب.

فهم شادوا القلاع والحصون ونظموا حياتهم فيها لما غنموه من الماء والأرض الطيِّبة فيها.

وكان عددهم في مكَّة ضئيلاً.

وفي هجرتهم من الشمال إلىٰ الجنوب وصلوا إلىٰ اليمن، وسكنها قليلٌ منهم، إلّا أنَّ حادثة حدثت جعلت اليهودية دين اليمن الرسمي بعدئذ.

وتلك الحادثة هي ـ علىٰ ما قيل ـ أنَّ يهود يثرب هاجوا علىٰ حاكمهم في القرن الميلاديِّ الخامس وقتلوهُ، وهو ابن أبي كرب ملك اليمن الذي كان له حروب مع ملوك الفرس من أجل اليمن، فقرَّر أن يؤدِّب عصاة اليهود والعرب في طريقه ليخلو لمجابهة الفرس.

فتحصَّن اليهود في يثرب، وحاصرهم أبو كرب حصاراً طويلاً ساءت به أحوالهم، فجاءه عدَّة من أحبارهم، وقالوا له: لقد قتل ابنك أربعة من جُهَّالنا، فاعف عنهم واعطف علينا.

وراحوا يقرءون عليه تعاليم اليهوديَّة قراءة أثرت في نفسه واستهوته، فصار يهوديّاً وعادَ منهم إلىٰ اليمن، وأخذ هو وأعوانه يدعون إلىٰ اليهودية.

ثم مات أبو كرب، وورثه ابنه ذو نواس، فنشر اليهودية في اليمن كُلِّها وأقام أحكامها وعمر الكنائس.

وقد كان هذا في حدود ثمانين سنة أو قرن قبل الإسلام.

وبناءً علىٰ هذا رأيتم أنَّ اليهودية والمسيحيَّة كانتا في شمال البلاد العربيَّة، والزرادشتيَّة والمزدكية في مشرقها وكانت ديانة الفرس، وفي الجنوب ويثرب كانت اليهودية أيضاً، وفي سائر المناطق كانت الوثنيَّة والصابئيَّة وأديان شتّىٰ.

كتب مؤلِّف تاريخ اليهود أن العرب استقبلوا اليهود بإحسان وامتزجوا معهم وزاوجوهم وتأثروا بهم كثيراً، فقد كان اليهود اقتصاديين، فقبضوا علىٰ مقاليد الحياة الماليّة، وكانوا متعلِّمين تساعدهم قراءتهم علىٰ توسعة معلوماتهم وقصصهم التي كانت تخلب عقول العرب الأميِّين، فحظوا بالاحترام عندهم والميل إليهم حتَّىٰ إنَّ بني كنانة في مكة تهوَّدوا.

المسيحية

كان وضع المسيحيَّة في الحجاز وشبه جزيرة العرب وضعاً خاصَّاً، فهي إلىٰ حدود خمسين ومئة سنة قبل الإسلام لم تكن قد نفذت في العرب، فعلىٰ نحو ما يفعل المبشِّرون بها اليوم في إفريقية وأمريكة الجنوبيَّة، فينتشرون في الغابات يدعون لها، كانوا في ذلك الزمان كذلك يفعلون، فينتشرون في الصحراء اللاهبة يعرضونها علىٰ الناس ويرغبونهم فيها.

وأوَّل فئة منهم جاءت إلىٰ نجران، فأثرت فيها، وجعلتها أوَّل منطقة مسيحيَّة في بلاد العرب.

وشَرَعَ النجرانيُّون في الدعوة إلىٰ المسيحيَّة إضافة إلىٰ المبشِّرين بها القادمين من الخارج فراجت في وسط البلاد العربية واتَّسعت حتّىٰ اصطدمت باليهوديَّة التي أخذ ملك اليمن ذو نواس ينشرها بالإكراه.

ومنشأ ذلك الاصطدام سياسيّ، فملك الملوك في الحبشة كان يطمع في اليمن لجوارها ووقوعها في الجهة الأخرىٰ من البحر، فحصل الاصطدام بينه وبين ذي نواس الذي أغار علىٰ نجران انتقاماً من الأحباش، فقتلهم قتلاً عامَّاً، وقد وردت قصَّتُهم في القرآن الكريم بعنوان أصحاب الأخدود، وجدب القرآن ذلك الفعل الشنيع.

فذو نواس قتل كثيراً من أهل نجران، وأحرق عدداً منهم وهم

أحياء، فحمل هذا ملك ملوك الحبشة المسيحيَّ وملك ملوك الروم أن يهبا لنجدة المسيحيّين في نجران واستنقاذهم من شرِّ ذي نواس.

ولبعد ملك ملوك الروم عن اليمن طلب من ملك ملوك الحبشة أن يساعده وينتقم من ذي نواس وأهل اليمن.

وعليه جرت قصَّة ابرهة الذي عبرت جيوشه إلىٰ اليمن، فقتلت ذا نـواس وعدداً غفيـراً من أهل اليمن، واستـولت عليهـا، وأحلَّت المسيحيَّة محلَّ اليهـوديَّة، وأقـامت الكنائس المسيحيـة رسميَّاً، ثُمَّ حدث بعدئذ العدوان المُسمَّىٰ عام الفيل.

فالديانات السائدة عنـد شروق الإسـلام في بلاد العـرب هي اليهوديَّة في الدرجة الأولىٰ والمسيحية في الدرجة الثانية والزرداشتيَّة في الـدرجة الثـالثة، والصـابئيَّة وهي شعبـة وثنيَّة يمتـدُّ أصلها إلىٰ الديانات التي كانتْ في عصر إبراهيم الخليل.

وكلُّ هذه الأديان ذكرت في القرآن الكريم.

وفي الدرجة الخامسة أديان محلِّيَّة شتَّىٰ.

فشبه جزيرة العرب إذن كان مشتبك نفوذ أديان متفرِّقة في ذلك الوقت.

وهنا لا بدَّ لنا من معرفة كبيرة بموطن ظهور الإسلام وهو مكَّة والمدينة والطائف، ولا بُدَّ من إيضاحاتٍ مقتضبة علىٰ ما بُيِّن.

ففي حـدود القرنين الثـاني والثالث الميـلاديّين هاجـر العرب القحطانيُّون إلىٰ أطراف البلاد العربيَّة، وتخلَّفت طائفة منهم في مكَّة، وهي خزاعة، وسيطرت علىٰ مقاليد الأوضاع فيها.

وقبل أن تبسط خزاعة نفوذها علىٰ مكَّة كانت قبائل إسماعيليَّة

من العرب العدنانيِّين تدير الحياة فيها، وأهمُّها قريش التي لم تحظ بما حظيت به من الشأن فيما بعد.

وفي الوقت الذي غلبت فيه خزاعة علىٰ مكَّة وتسلَّمت شؤونها كافَّة ولد في قريش طفل سمِّي قصيَّ بن كلاب من أُمٍّ خُزاعيَّة.

ولمَّا شبَّ قصيّ أخذ يفكِّر بآستعادةِ ما آغتصب من قريش ومن جملته مفاتيح الكعبة وسقاية الحاجِّ وعمارة البيت التي كانت سمةً مهمَّة توارثها آباؤه، ثمَّ صارت إلىٰ خاله الذي كان صاحب شرابٍ وملذَّات.

وسنحت الفرصة لقصيٍّ، فآشترىٰ تلك السِّمة العالية من خاله بدنٍّ شراب وبعير كان يشتوي من لحمه، وصار ذلك البيع مضرب المثل، فقيل: أخسر من صفقة أبي غبشان، وقيل: أحمق من أبي غبشان، وهو خال قُصيّ.

وهيمن قُصيٌّ الكفوء علىٰ مكَّة هيمنة تامَّة، وألَّف بين قبائلها ولا سيَّما بطون قريش، ونظَّم أُمورها تنظيماً استتبَّت به حياتُها وهَدَأت فتنها.

وبهذا التدبير الحكيم ظهر نوع من الحكم والإدارة سيَّر أوضاع مكَّة تسييراً حَسنَا.

طوائف قريش المهمة ومناصبها

كانت قريش بيوتاتٍ عديدة أهمُّها الهاشميُّون والأمويُّون والنوفليّون والداريّون وبنو أسد وبنو مخزوم وتيم وجمع وسهم.

اولئك كانوا هم أُولي الشّأن، وكانت مناصب الكعبة حتّىٰ ذلك الحين اثنين أو ثلاثة، بيد أنَّ قُصيَّاً زادها توحيداً لتلك البيوتات، فأعطىٰ كلاًّ منها منصب لتطيب النفوس، وتنأى عن محاربة بعضها البعض.

ومعلوم أنَّ استحداث منصب يحتاج إلىٰ سابقة طويلة.

وكانت المناصب عند ظهور الإسلام حوالي خمسة عشر يتعلَّق كلٌّ منها بفئةٍ أو بطن من بطون قريش:

١ ـ مفاتح الكعبة وحجابتها، وهو أهم منصب.

٢ ـ سقاية الحاجِّ الذين كانوا يأتون من أنحاء مختلفة ولا علم لهم بالمياه، فتقوم طائفة من قريش بتهيِّة الماء لهم في المواسم من المنابع والآبار في أحواض من الجلود مفتوحة للناهلين والجالبين.

٣ ـ الرِّفادة: ففي ذاك الزمان كان أكابر مكة يرعون المسافرين ويستضيفونهم، ويرون ذلك عنوان سيادة وشرف، ولذلك يجمعون المال ليمدُّوا به الزاد الكريم لطالبيه من غير سؤال، وما زالت هذه المكرمة في العرب اليوم.

٤ ـ رفع اللواء، فقد كان في مكة لواء اسمه العقاب يحمله

شيخ القبيلة الناهضة به في الحرب، وقد كان في زمن رسول الله بيد بني أُميَّة.

٥ ـ الندوة أَو الشورىٰ، وهي ممّا ابتكره قصيّ بن كلاب إذْ أنشأ داراً في جوار الكعبة يجتمع فيها الأكابر للنظر في المهمَّات، وآتِّخاذ ما يلزم بشأنها علىٰ وفق الآراء الغالبة.

والطريف في هذه الشورىٰ التي كانوا يسمُّونها شورىٰ قُصيٍّ بن كلاب أنْ لا يدْخُلها منْ تقلُّ أعمارهم عن الأربعين.

وللشبَّان أن يعترضوا اليوم علىٰ إيثار الشيوخ علىٰ الفتيان والكهول، ولكنَّ الالتفات إلىٰ أثر الرجال المجرَّبين في الحياة يدفع هذا الاعتراض.

وسنرىٰ في حياة الرسول الأكرم أنَّ عبد المطَّلب جده كان يأخذه معه إلىٰ دار الندوة مع أنَّ ورود الأطفال كان ممنوعاً، وحميت أُنوف من رأوه معه في المرَّة الأولىٰ ثمَّ رضوا بعدئذ ودعوا أن يحضر، ولهذا حكاية خاصَّة به.

٦ ـ القيادة والإشراف علىٰ شؤون القوافل التجاريَّة، وكان هذا المنصب لبني أُميَّة أيضاً.

٧ ـ دفع الدِّية والغرامة الذي كان ينهض به شيخ القبيلة التي لها هذا المنصب، فيجمع الأموال بقسمة الدية المترتِّبة أو الغرامة علىٰ من تجب عليهم المساهمة فيها، لئلاَّ تثور فتنة.

فهي تشبه ما يُسمَّىٰ اليوم الأموال العامَّة.

٨ ـ التَّسليح، وكان له دارٌ خاصة به هي خيمة كبرىٰ تجمع فيها الأسلحة حتَّىٰ إذا كانتْ حرب وزِّعت بين المقاتلين توزيعاً صحيحاً.

٩ ـ اصطبّل الجيش وهـو منصبٌ لقبيلة كانت تعنىٰ بـالدَّوابِّ والمطايا التي تعُم الإبل والخيل وسواها مما يلزم للحرب.

١٠ ـ السِّفارة، وهو منصب لمن يعهد فيهم البراعة في الحلِّ والفصل في المهمَّات التي كانوا يواجهونها لدىٰ غيرهم كما حدث في هجرة المسلمين إلىٰ الحبشة.

١١ ـ القضاء: وكان لعدَّة من العرب الحكماء الذين يقـومون مقام القضاة اليوم.

١٢ ـ خزانة الكعبة التي كانت تتولَّىٰ حماية الذهب والجواهر والأموال المقدَّمة نذوراً للكعبة.

وكلَّ عام أو نصف عام يفتح الخازن المستودع ويقسمـه بين القبائل.

١٣ ـ عمارة الكعبة، وهو منصب يعنىٰ بحفظ الكعبة وترميمها.

١٤ ـ الأنصار والأزلام، وهو منصب يشبـه إدارة بيع بـطاقات النصيب في زماننا، وهي معروفة بين العرب في ذاك الزمان بالأيسار جمع يسر الذي منه كلمة الميسر العربيَّة الذائعة في القمار بينهم.

وفي النواحي غير العـامرة والقليلة العمـران في إيران عنـدما يقترب العيد في الشتاء يشيع اصطلاح فصل الفاليات الذي لا أدري مدىٰ شموله لسائر المناطق، ففي هذا الفصل يستنفد أبناء النواحي كلَّ ما لديهم.

وقد يحصل مثل هذا في بلاد العرب شتاء خاصَّة في السنين التي لا مطر في ربيعها وصيفها.

في ذلك الوقت يتذرَّع العرب إلىٰ بلوغ الحَير العامِّ، ويقولون:

عسىٰ أن يبعث هذا الأغنياء علىٰ ذكر الفقراء، فيعودوا عليهم ولو بالفضل من مالهم يرحمون به منكودي الحظِّ.

وهذا من الابتكارات الإنسانيَّة الذائعة حينذاك.

«وكانت العرب تستقسم بالأزلام في كلِّ أمورها، وهي القداح... وكانت قداح الميسر عشرة: سبعة منها لها أنصب، وثلاثة لا أنصب لها.

فالسبعة التي لها أنصب يقال لأوَّلها الفذّ، وله جزء، والتوأم وله جزآن، والرقيب وله ثلاثة أجزاء، والحلس وله أربعة أجزاء، والنافس وله خمسة أجزاء، والمسبل وله ستَّة أجزاء، والمعلَّىٰ وله سبعة أجزاء.

والثلاثة التي لا أنصب لها أغفال ليس عليها اسم يقال لها: المنيح، والسفيح، والوغد.

وكانت الجزور تشترىٰ بما بلغت، ولا ينقد الثمن، ثُمَّ يُدعىٰ الجزَّار، فيقسمها عشرة أجزاء، فإذا قسمت أجزاؤها علىٰ السواء أخذ الجزَّار أجزاءه، وهي الرأس والأرجل، وأُحضرت القداح العشرة، واجتمع فتيان الحيِّ، فأخذ كلُّ فرقة علىٰ قدر حالهم ويسارهم وقدر احتمالهم.

فيأخذ الأوَّل الفذَّ وهو الذي فيه نصيب واحد من العشرة أجزاء، فإذا خرج له جزء واحد، أخذ من الجزور جزءاً.

وإن لم يكن يخرج له غرم ثمن جزء من الجزور.

ويأخذ الثاني التوأم، .وله نصيبان من أجزاء الجزور، فإن خرج أخذ جزئين من الجزور، وإنْ لم يخرج غرم ثمن الجزئين.

وكذلك سائر القداح علىٰ ما سمَّينا منها، فما خرج أخذ صاحبه ما فيه، وما لم يخرج غرم ما فيه من الأجزاء...

وكانوا يفتخرون به، ويرون أنه من فعال الكرم والشرف، ولهم في هذا أشعار كثيرة يفتخرون بها»[1].

وبالتدريج استعملت كلمة الميسر في القمار، وكان لتسمية تلك الأخشاب (الأنصاب) مناسبة مع جذر النصيب.

وكان للعرب سبع خشيبات يسمُّونها الأزلام يستخيرون بها علىٰ النحو الشائع اليوم غلطاً بين المسلمين.

فقد «كانت العرب تستقسم بالأزلام في كلِّ أمورها، وهي القداح، ولا يكون لها سفر ولا مقام، ولا نكاح، ولا معرفة حال، إلّا رجعت إلىٰ القداح.

وكانت القداح سبعة: فواحد عليه: الله عزَّ وجلَّ، والآخر لكم، والآخر عليكم، والآخر نعم، والآخر منكم، والآخر من غيركم، والآخر الوعد.

فكانوا إذا أرادوا أمراً رجعوا إلىٰ القداح، فضربوا بها، ثمّ عملوا بما يخرج من القداح لا يتعدّونه، ولا يجوزونه.

وكان لهم أُمناء علىٰ القداح لا يثقون بغيرهم»[1].

وهؤلاء المؤتمنون علىٰ القيام كانوا قوماً من قريش، وهذا يعني

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ١/٢٥٩ ـ ٢٦١.

(١) تاريخ اليعقوبي: ١/٢٥٩.

أنَّ السمات المختلفة التي قُسِّمت بين قريش إنَّما هي للائْتلاف والعيش معاً.

وعلىٰ الرغم من الاختلافات الكثيرة بينهم في ذلك الزَّمن، فإنَّهم كانوا يسعون بتلك النظام الناقض ألاَّ تجرَّهم خلافاتهم إلىٰ الحرب علىٰ قدر المستطاع.

وقد كان ذلك النظام مثمراً حقاً، فبعد قُصيٍّ بن كلاب إمَّا لم تقع حربٌ بين بطون قريش، وإمَّا كانت طفيفة جدَّاً.

وكانت فترة ما بعد قُصي في مكَّة والمنطقة المرتبطة بها برزخاً بين نظام القبيلة والحكومة، فقد مرَّ معنا أنَّ الحياة اتَّخذت نوعاً من النظم وطابعاً من التخصُّص وتقسيم الشؤون في مكَّة.

بينما كانت الطائف مدينة عامرة تهيمن عليها قبيلة واحدة هي ثقيف.

أمَّا يثرب، فقد كان وضعها ممتازاً، إذْ هاجر إليها قبيلتان من العرب القحطانيِّين المقيمين في اليمن فيمن هاجر منهم إلىٰ الشمال والشمال الشرقيّ فراراً من خراب سدِّ مأرب، وهما الأوس والخزرج اللتان استقرَّتا في يثرب لما وجدتاه من الخير والماء ورقَّة العيش فيها، وانسجمتا مع اليهود الذين سبقوهما إلىٰ الاستيطان فيها، فقد كان في اليهود ساسة وأُولو نظر استقبلوا هاتين القبيلتين لما رأوه من غربتهما وضعفهما وإمكان الانتفاع بمعايشتهما.

فقامت بينهم أواصر حميمة وانسجام رائع في أوائل القرن الميلادي الثاني دلَّ علىٰ حكومة منظَّمة.

وبعد مدَّة ظهر في اليهود حاكم جائر أشعل الحرب بين اليهود وأُولئك العرب القحطانيين الذين حظوا بنصرة إخوانهم العدنانيِّين

القريبين منهم علىٰ اليهود، وعلا شأنهم في يثرب وانحدر شأن اليهود زمناً حتّىٰ نشأتْ بينهم حرب اهتبلها المكر اليهوديّ وراح يؤجّجها علىٰ حساب الإخوة المحتربين من الأوس والخزرج، ويغنم هو ثمار الفتنة المشتعلة بينهم.

واستمرّت ألسنة اللهب المضطرم بين الخزرج القبيلة الكبرىٰ والأوس القبيلة الصغرىٰ حتّىٰ عصر البعثة النبويَّة.

فقبيلة الخزرج ذات البطون والبيوت والكثرة كانت تطمح إلىٰ محاكاة قريش في مكَّة، إذ أرادت أن يكون منها ملك ينظِّم شؤون الحياة في يثرب علىٰ نحو ما في مكَّة التي كانت في طور العبور من القبيلة إلىٰ الدولة.

وذاع الحديث في المدينة لأوَّل مرَّة في تاريخها عن اختيار عبد الله بن أُبي الرجل المحترم في الخزرج ملكاً لهم يبايعونه ويصنعون له تاجاً وعرشاً.

وأثَّر هذا الموضوع في مستقبل الإسلام أثراً بالغاً سنوضحه فيما بعد علىٰ الرَّغم كونه يسيراً في الظاهر.

في مثل هذه الأوضاع الثقافية والاقتصاديّة والسياسيَّة والدينيَّة صدع الرسول الأكرم بالدعوة إلىٰ الإسلام.

هذا مختصر للوضع في البلاد العربيَّة عند ظهور الإسلام ضمَّ إشارة إلىٰ الجذور التاريخيَّة والنُّكات التي سوف نحتاج إليها في الأبحاث المقبلة.

نبدأ البحث من موقع يكون فيه البحث بداية واقعيَّة للمباحث

الإسلاميَّة من جهة، ويكون فيه توأماً للقضايا العقيديَّة والاجتماعيَّة والسلوكيَّة من جهة.

وهذا هو الأنسب لخطِّ السير الطبيعيّ لهذه الأبحاث.

وسننظر إلىٰ الإسلام في مجراه التاريخيّ علىٰ هذا النحو، وابتغاء فهمه فهماً أحسن بدأنا باستطلاع المنطقة التي ظهر فيها أي: شبه جزيرة العرب الشاملة للحجاز ونجد، واليمن الشمالية والجنوبيَّة والمشيخات في جوار الخليج الفارسيّ وبحر عُمان، وتناولناها من وجهة طبيعيَّة وإنسانيَّة وقوميَّة ولغويَّة ودينيّة واقتصاديَّة.

ونتناول الآن الممالك المتمدِّنة المحيطة بها في ذاك الزمان، وهي في الأساس قسمان:

القسم المرتبط بجزيرة العرب المحكوم بحكومات محليَّة صغيرة يجب عدُّها عربيَّة علىٰ الرغم من ارتباطها بالدُّول الكبرىٰ في ذلك الزمان.

ومنها المنطقة الواقعة شمال شرق الجزيرة ويحكمها المناذرة المرتبطون بملوك الفرس وعاصمتهم الحيرة علىٰ الفرات بالعراق.

والحكومة الأخرىٰ داخل شبه الجزيرة العربيَّة نفسها هي حكومة اليمن المستقلَّة التي كانت تحكم شمال اليمن وجنوبها حتىٰ تذبذبت في الارتباط بالفرس تارة وبالحبش تارة طوال خمسين ومئة سنة أو مئتي سنة قبل ظهور الاسلام.

وهناك الحكومة المرتبطة بالروم، وهي حكومة الغساسنة التي كانت تحكم الأردن وفلسطين.

وسنقتضب الحديث عن هذه الحكومات الثلاث الصغيرة لما لها من دور عند ظهور الإسلام.

إيران القديمة

كان إلىٰ جوار الجزيرة العربيَّة في ذلك العصر أربع ممالك فيها حكومات مقتدرة وشعوب متحضِّرة اثنتان منها في الدرجة الأُولىٰ، واثنتان منها في الدرجة الثانية.

وإحدىٰ اللتين هما في الدرجة الأولى إيران الممتدَّة من وسط العراق الحاضر وقسم من القفقاز من الغرب والشِّمال إلىٰ ديار الترك في أفغانستان وقسم من باكستان يشمل وادي السند.

وكان لهذه المملكة حضارة عريقة مرَّت بأطوار شتّىٰ، وشعب عاش ألوان التحوُّلات، وهو من أكبر جيران العرب الذين كانوا في صحراء لا يُعتنىٰ بها حتَّىٰ إنَّه لا يمكن القول عن بلاد متحضِّرة واسعة كإيران إنَّها جارة جزيرة العرب.

إلّا أنَّ البحث هنا ليس عن الصِّغر والكبر، وإنَّما هو أن نعرف من هم جيران العرب في ذلك الزمن.

وجار العرب الثاني الذي كان جاراً لإيران أيضاً هو الروم الذين كان لهم دولة كبيرة تضمُّ قسماً من العراق وتركية وبلاد البلقان، وهؤلاء هم الروم الشرقيُّون وهم الذين نعنيهم بالذكر، فالروم الغربيون الذين كان مقرُّهم في إيطالية ما كان لهم شأنٌ في ذلك الوقت ولا أثرٌ مرتبط بالإسلام علىٰ الرغم من أنَّ مملكتهم كانت تشمل إيطالية وقسماً من يوغسلافية وألبانية وقسماً من اسبانية حتَّىٰ قسماً من فرنسة، أي: أنَّهم البلد الأُوربيُّ الوحيد.

ومن الأمم الأُخرىٰ البربر.

وكانت بيزنطة أو الروم الشرقيُّون أُولي حضارة لا تقاس بغيرها، فشأن الروم الغربيين أخذ في الظهور عندما هـزم المسلمون الـروم الشرقيِّين، وأخذ الخلفاء ـ السلاطين العثمانيّون ـ اسلامبول، فقد فرَّ علماء الروم الشرقيِّين في القرن الخامس عشر الميـلاديّ إلىٰ رومة وكانوا من بواعث التمدُّن الأُوربيِّ الحديث، أي أنَّ الروم الغربيِّين كانوا دولة من الدرجة الثانية.

هاتان جارتا جزيرة العرب الشماليَّتان.

وجارتاها في الدرجة الثانية كانتا غربها، وهما: مصر الحاضرة ومعها ليبية وتونس وشيءٌ من السودان.

وهذه الدول ذات شأْنٍ ملحوظ في ظهور الإسلام وانتشاره علىٰ الرغم من أنَّها لا تعدُّ شيئاً بإزاء إيران وبيزنطة.

والثانية هي الحبشة التي تشمل الحبشة اليوم وشيئاً من السودان الحاضرة، ولم يكن فيها حكومة كبيرة.

وكانت في ظهور الإسلام ذات نظام عريق وتمدُّن ومزايا حياتيَّة دينيَّة مشفوعة بحرِّيَّة اجتماعيَّة لا بأس بها.

وإذا اجتزنا هذه الدول المذكورة آنفاً استطعنا القول: إنَّ ما بقي من دُنيا التمدُّن في ذلك الوقت هو دولتان هما: الصِّين، والهند.

وقـد بسطنـا هذا المـطلب في الأحاديث المخصَّصـة بـالفئـة المتعلِّمة في إيران أو هنا في ألمانية، لأنَّهم ربَّما يسألون: هل كان الرسول الذي جاء بالإسلام دينـاً عالميَّـاً مطَّلعـاً علىٰ خارج جـزيرة العرب؟

وجواباً عن هذا السؤال نقول: إنَّنا لا نقول لمن قرأوا كتب نبيّ، ولا لمن رأىٰ الخرائط وراجع التاريخ.

وإنَّما نقول: نبيٌّ لمن يقتبس علمه واطِّلاعه من الوحي الإلهيّ الذي لا حدَّ له هذا أوَّلا.

وثانياً هو أنَّ النبيَّ كان قد أرسل إلىٰ ملوك زمانه وحُكَّامه يدعوهم إلىٰ الإسلام، وهذا يشهد أنَّ هذا السؤال غير لائق أصلاً.

وفيما دوِّن من التاريخ أنَّ الرسول الأكرم أعلن الدعوة إلىٰ الإسلام في السنة الثالثة للبعثة بأمر إلاهيّ، فدعا عشيرته الأقربين إلىٰ وليمة في منزله، وحدَّثهم حينئذ أنَّ قصور الأكاسرة ستفتح بأيديهم في نور الدِّين الجديد.

وفي السنة السادسة للهجرة بعث إلىٰ ملوك الحيرة وغسَّان واليمن، فآبتدأ بالكتابة إلىٰ باذان ملك اليمن الفارسيّ مع معاذ بن جبل، ثمَّ إلى خسرو برويز ملك ملوك الفرس وإلىٰ ملك ملوك بيزنطة، والمقوقس حاكم مصر والنَّجاشي ملك الحبشة.

وهذه الرسائل مدوَّنة في التاريخ ولا مجال للبحث فيها.

يبقىٰ الكلام في هل كان الرسول يعلم بالهند والصين أو لا؟

وكلُّ من له أدْنى اطِّلاع علىٰ تاريخ العرب يعرف أنَّ من أُسس الحياة العربيَّة نقل التُّجار العرب البضائع من الهند والصين عن طريق بحر عُمان والبحر الأحمر إلىٰ أُوربَّة.

وليس النبيُّ وحده كان يعلم في ذلك الزمان أنَّ التوابل والعطور والخزف وسواها من المصنوعات كانت تنقل من الهند والصين إلىٰ العرب والروم، وأنَّ هذا هو أُسُّ التجارة العربيَّة في ذلك العصر.

من هنا يتجلّىٰ أنّه لا مجال للسؤال عن اطّلاع النبيِّ علىٰ الأُمم المتمدِّنة في زمانه وحياتها.

ويمكن السؤال عن اطّلاعه علىٰ الأرجاء المعمورة اليوم.

ولا نستطيع الجواب عن هذا السؤال حقّاً، لاعتقادنا بأنَّ النبيَّ لا يعلم كلَّ شيءٍ، ولكنَّ كلَّ ما يحتاج إلىٰ معرفته يأتيه به الوحي.

وأنا لا أعلم ما إذا كان النبيُّ محتاجاً إلىٰ معرفة هذه الأمكنة أم لا.

موقع إيران الجغرافي

علَّة بحثنا عن إيران هي معرفة العلاقة بين الحكومة الساسانيَّة والعصر الساسانيِّ وما يستلفت النظر فيه من ظهور الديانة المزدكيَّة.

فهذا ما يجب التحقيق فيه والاستناد إليه في المقارنة والتطبيق.

وإذا قارنَّا بين جزيرة العرب وإيران قبلاً من الناحية الطبيعيَّة، وجدناها أرضاً قاحلة محرومة مقابل في الأقلِّ قسم من إيران عامرٍ زاه تغمره البركة ويتمتَّع بالنعيم.

والجزء المقارب لجزيرة العرب من إيران هو الحواشي الغربيَّة لسلسلة جبال زاگروس المخضرَّة، وكانت الخضرة عنوان قسم من كرستان وكرمان شاه وهمدان وكردستان الإيرانيَّة كما كان قسم كبير من وادي الرافدين موْئل الخضرة وزراعة النخيل، حتّىٰ إنَّه كان يسمَّىٰ أرض السَّواد من شدَّة خضرته التي كانت تتجلَّىٰ سواداً لعرب البادية الذين يقطعون الصحارىٰ الرمليَّة لا يكادون يرون الخضرة فيها إلاّ قليلاً من أشجار وأعشاب عند بعض الآبار، وبسفري إلىٰ هذه المناطق رأيت البأساء فيها عن كثب.

ويجب القول عن الساحل الشرقيِّ للبحر الأحمر: إنَّه جائع نائم علىٰ كنز، فما رأينا شجرة في طريقنا من الأردن إلى جدَّة، وليس في ضفاف البحر سوىٰ الرِّمال.

ولا أعلم هل الأرض طيِّبة هناك أولاً، ولكنَّ المهمَّ هو أنَّ الجهة التي تهبُّ منها الرياح تحمل بخار البحر الأحمر إلىٰ إفريقية.

وإن لم تهبَّ تلك الرياح يرتفع مقدارٌ من ذلك البخار ويتحوَّل إلىٰ مطر علىٰ تلك الديار، بيد أن الرِّياح تحمل بخار الماء إلىٰ إفريقية والساحل الغربيِّ من البحر لتنفع الصومال والحبشة وسواهما.

ولو أردنا المقارنة من الناحية الطبيعيَّة لوجب القول: إنَّ المنطقة الإيرانية المقابلة لجزيرة العرب هي من أحسن المناطق الإيرانيَّة بعد المنطقة المتاخمة لبحر الخزر العامرة بطبيعتها منذ البدء.

واللافت للنظر أنَّ الكثافة السُّكَّانيَّة في منطقة گيلان ومازندران هي في حدود مئة نسمة في الكيلومتر المربَّع، في حين أنَّها في حدود ستَّ عشرة نسمة في الكيلو متر المربَّع من سائر المناطق.

وگيلان ومازندران من الاكتظاظ السُّكَّاني والعمران إلىٰ حدٍّ أنَّها تحتضن ثلاثة ملايين نسمة يسكنون مساحة في حدود ثلاثين ألف كيلومتر مربَّع.

ولو تجاوزنا هذه المنطقة التي لا تجاور بلاد العرب إلىٰ المنطقة الغربيَّة من إيران والشرقيّة من العراق اليوم التي كانت تجاور أرض العرب إلىٰ حدٍّ ما، لرأيناها غنيَّة طيِّبة صالحة للزراعة متمتِّعة بالمياه العذبة والهواء العليل والخضرة وأنواع النبات وكُلِّ ما يلذّ.

وكانت حدود إيران تمتدُّ من نهر السند والقسم الأعظم من أفغانستان إلىٰ سيحون وجيحون وإلىٰ ما فوق نهر أرس الذي هو في بلاد القفقاز الحاضرة وإلىٰ شطِّ العرب.

هذه حدود إيران في ذلك العصر، وهي لا تقاس من ناحية السعة والترامي ببلاد العرب.

وعند ظهور الإسلام وفيما سبقه كانت الأقسام الشرقيَّة من إيران تُسمَّىٰ خُراسان.

وأنتم تعلمون المادَّة التي اشتقَّت منها خراسان في اللغة الفارسيَّة.

خراسان تعني شبيه الشمس، أي أنها أرض مشمسة، لوقوعها شرق إيران.

وعلىٰ هذا كانت الأجزاء الشرقية من إيران في ذلك الوقت تشمل خراسان الحاضرة وقسماً من تركستان الواقعة بجنوب الاتّحاد السوفيتيّ وقسماً من أفغانستان وبلوشستان وسيستان، وكلّ هذه كانت تُدْعىٰ خُراسان.

التحضُّر

يُدعىٰ التمدُّن الإيرانيُّ التمدُّن الآريَّ، وقد ظهر قبل الإسلام بأحد عشر قرناً، بل باثني عشر قرنا.

وهذا الجارُ الشرقيُّ المتحضِّرُ علىٰ ما قيل في بحث الحكومة قد انتقل من البداوة ونظام القبيلة إلىٰ الحكومة في حين أنَّ الحجاز لم تبلغ هذه المرحلة حتّىٰ عند ظهور الإسلام.

فأوَّل دولة ظهرت في الحجاز هي دولة الإسلام فيما ظهرت دولة الماديِّين قبل الإسلام باثني عشر قرناً، أي أنَّ هذا الجار الشرقيَّ للعرب يسبقهم في الحضارة والنظام الاجتماعي وإقامة الحكومة باثني عشر قرنا.

ولتقديم مثال طريف ننقل طرفاً من إحدىٰ مدوَّنات داريوش بشأن عمل هندسيّ، وقد كتبت هذه المدوَّنة بما يناسب الأبَّهة الملكيَّة من فخامة واهتمام.

وداريوش حكم من سنة ٥٥٠ إلىٰ سنة ٥٢٩ قبل الميلاد، وأوَّل مدوَّنة إيرانيَّة هي منه، أي أنَّه ليس لدينا مدوّنة قبل داريوش.

وقد استطاع القبض علىٰ مقاليد الأُمور بعد سنة من الفوضىٰ والاضطراب في إيران، فأقام فيها دولة كبرىٰ امتدَّت إلىٰ مصر مستوعبة الشام الكبرىٰ، ومجاورة لليونان إذْ لم يكن للروم الشرقيّين ذكر في ذلك الوقت، وإذ كانوا يقولون الروم، فمرادهم للروم الغربيُّون الذين لم يكن لهم شأن أيضاً.

وكان في زمان داريوش دولتان تحظيان بالأهميَّة هما اليونان ومصر.

وقد غلبت إيران مصر واستولت عليها ووضعت اليونان تحت الضغط.

وكان لا بدَّ للحروب التي شنَّها داريوش علىٰ اليونان بمناسبة وغير مناسبة أن تكون بحريَّة، لأنَّ اليونان مملكة مؤلَّفة من الجزر التي لا تمكن محاربتها برَّاً، ولأنَّ إيران لا تمتلك مدخلاً لبحر الروم (الأبيض المتوسِّط) صمَّم داريوش علىٰ حفر قناة بين البحرين الأحمر والأبيض، فحفر الموضع الذي أصبح الآن قناة السُّويس.

وذكر داريوش تاريخ هذه القناة في مدوَّنته.

يا أيُّها الربُّ العظيم يا إله العالم الذي لا شبيه له يا خالق السماء الرفيعة والإنسان وسعادته، وموصل داريوش إلىٰ الملك ومسلِّمه هذه المملكة الكبرىٰ وكلّ هذه الخيول الثمينة والناس الكثير.

أنا الملك داريوش، الملك العظيم ملك البلدان المختلفة العناصر ملك المملكة الواسعة المترامية الأطراف ابن ويشتاسب هخامنشي.

الملك داريوش يقول ما نصُّه: أنا فارسيّ تسلَّطت عليها من فارس إلىٰ مصر وقد أمرت بشقّ هذه القناة بين نهر النيل الجاري في مصر والبحر المنتهي إلىٰ إيران.

وقد حفرت هذه القناة بأمري وسارت السفن فيها من مصر إلىٰ إيران علىٰ النحو الذي كنت أريده.

هكذا كانت الحكومة قويَّة فاعلة حازمة في إيران قبل اثني عشر قرناً من ظهور الإسلام، ولا ريب في أنَّ بين ملوكها الغابرين من آمتاز

ببعد النظر وحسن الرؤية وكمال الكفاية كداريوش، ولا سيَّما في ما فعله علىٰ خلاف فعل الفاتحين في ذلك العصر، فقد أفرغ عنايته بالبلاد المسخَّرة له في البدء أكثر من عنايته التي استطاع تسخيرها لسلطانه. فقد صبَّ جهده علىٰ عماره أرض آبائه وأجداده أي مملكة كورش مقدِّماً إيَّاها علىٰ غيرها.

وما كان يكتفي بفتح الممالك فقط، وإنَّما كان يسعىٰ إلىٰ إتاحة حياة هانئة لمن يعيشون في ظلِّ مملكة إيران الكبرىٰ في ذلك الوقت.

كان هذا واضحاً في سيرة داريوش، ولذا كان ما أنجزه مرموقاً جدَّاً في حضارة ذلك العصر علىٰ وفق ما كتبه المستشرقون.

وليس هذا بحثنا أصلاً.

النظام الطبقيّ وكيفيّة تقسيمه

إذن كان في إيران طوال اثني عشر قرناً قبل الإسلام حكومة منّظمة متحضِّرة، لكنّها تختلف في مبانيها ومراميها عن الدولة الإسلامية التي ظهرت بعدها، فكلٌّ منهما في ضفَّة من النهر.

فهؤلاء في هذه الضّفّة من النهر، والإسلام في ضفَّته الأخرىٰ.

فقد ساد تلك المملكة المتمدِّنة نظام طبقيّ.

ويجب الالتفات إلىٰ طول الحياة المتمادية التي ما تزال آثارها وأمثلتها حيَّة في البلدان المتخلِّفة، فالناس كانوا يقسمون علىٰ فئات منذ ولادتهم، فأبناء الطبقة الدَّانية محكوم عليهم بالضعة منذ رؤيتهم النور، وأبناء الطَّبقة العليا مكتوب لهم الرِّفعة أبدا.

وهذا ما ساد إيران حتَّىٰ إنِّي ليخطر لي من مطالعتي التاريخيَّة أنَّ المركز الأوَّل للحياة الطبقيَّة كان الهند التي كانت متمدِّنة تمدُّن إيران والروم، بل إنَّ تمدُّنها لسابق وشامل إلاَّ أنَّها كانت أسيرة الطبقيَّة التي ما تزال سارية في حياتها العصريَّة، وهذا يعني أنَّها بلغت من الشِّدَّة والخشونة فوق ما بلغته إيران الغابرة.

وكان التقسيم الطبقيُّ في إيران القديمة علىٰ هذا النحو من النظر الاجتماعي، فالحاكم فوق الجميع حتَّىٰ إنَّهم في زمن الماديِّين قبل كورش وداريوش كانوا يرون الملوك فوق البشر، وقسمُوا سائر الناس علىٰ عدَّة طبقات.

فالطبقة الأولىٰ في عهد داريوش هي الفئة التي تحمل السلطة علىٰ كتفيها يعني الجيش الذي كان فوق الجميع.

والطبقة الثانية هي الفلّاحون.

والطبقة الثالثة هي الصُّنّاع.

إذن كان في عصر (الهاخامنشيِّين) ثلاث طبقات.

ويظهر التاريخ أنَّه لم يكن في هذا العصر أثرٌ للعاملين في الدِّين مع أنَّهم كانوا في ذلك الوقت وكان الدِّين أيضاً، إلّا أنَّه لم يكن بنحو متميِّز.

فقد بدأ ظهور هذه الفئة في عصر الساسانيِّين، وسنبيِّن أنَّ الطبقة الأولىٰ في عهد الساسانيين هي الكهنة ورجال المعابد، والطبقة الثانية هي المحاربون والجند، والطبقة الثالثة هي الموظَّفون ورجال الإدارة، والطبقة الرابعة هي الفلّاحون والصنَّاع وهم الذين قال فيهم أبو القسم الفردوسيّ:

جماعة تعرف بالمشايخ تقف عابدة زاهدة.

وطبقة اصطفَّت وبدا بعضها علىٰ كتفي بعض هم المحاربون الأسود مصابيح الجيش والبلاد.

والطبقة الثالثة علىٰ ما ذكره الفردوسيّ هي الفلّاحون:

والطبقة الرّابعة هي الصُّنَّاع وأصحاب الحرف.

هذا علىٰ ما نقل الفردوسيّ، أمَّا علىٰ نقل الثعالبيّ، فالطبقات هي:

١ ـ المحاربون.

٢ ـ الكهنة والأطباء.

٣ ـ الموظّفون ورجال الإدارة.

٤ ـ الفلاحون والصنّاع وأصحاب المهن.

ونقل الثعالبي أثمن من نقل الفردوسيّ من الناحية التاريخيَّة، لأنَّ الفردوسيّ نظم علىٰ أساس ما سمع.

في رسالةٍ كتبها أحد قادة إيران الشماليين إلىٰ ملك طبرستان أنَّ الطبقة الأولى هي الدينيّون، والثانية هي المقاتلون، والطبقة الثالثة هي الإداريّون والرابعة هي الكادحون.

ولا فرق بين ما في هذه الرسالة وما نقله الفردوسيّ.

علىٰ كلٍّ حال كانت الطبقة الأولىٰ والثانية هي الكهنة والمحاربون أو بالعكس، والطبقة الثالثة هي الإداريّون والعاملون لدىٰ الدولة، والرابعة هي الفلّاحون والكادحون.

ومعنىٰ الطبقيَّة في ذلك المجتمع هو أنَّ ابن الفلّاح أو الْكاسب أو الصايغ يستطيع أن يكون في الكبر فلّاحاً كاسباً أو صانعاً، ولكنّه لا يستطيع أن يتخيَّل نفسه حتّىٰ خيالاً أنَّه من الكهنة أو الجند أو العاملين لدىٰ الدولة.

فليس له مكان في تلك المواقع، وليس له أن يفكِّر بذلك، إلّا في حالات استثنائية نادرة إذ ينتقل أفراد من طبقة دانية إلىٰ طبقة أعلىٰ منها بأمر ملكيٍّ.

وتنمية الطاقات الإنسانيَّة مباحة للجميع، لكنَّها لا تحوِّل أحداً إلىٰ أعلىٰ من طبقته إلّا استثناء.

ونظام الحياة هذا مختلفٌ عمَّا جاء به الإسلام من نظام تمام الاختلاف.

وقد عرضت لموضوع الطبقات هنا لما له من قيمة في بحثنا مستقبلاً عن الأديان والمذاهب في العصر الساسانيّ.

التَّرقِّي العلميّ

سنتناول العلم والترقيات العلميَّة في العصر الساسانيِّ لاحقاً.

أمَّا بشأن العصر الهاخامنشيّ، فليس لدينا دليلٌ علىٰ التقدُّم العلميِّ والصناعيِّ فيه، لكنَّ من المسلَّم به أنّ داريوش تمكَّن من إدارة إيران المترامية الأطراف في ذلك الزمان إدارة دقيقة، وهذا لا يتسنَّىٰ بغير أساس.

وممَّا هو جليٌّ في التاريخ وباعث علىٰ الأسف أنَّ ملوك ذاك العصر كانوا يرون كلَّ بلد متمدِّن جزءاً من إيران، وكانوا يقولون إذا رأوا مملكة متحضِّرة غير مملكتهم: ستكون هذه لنا عاجلاً أو آجلاً.

وفي ظلِّ هذا اللون من الفكر كان الطبيب المشهور في ذاك العصر يونانيّاً كما كان الجغرافيُّ الشهير الذي أمره داريوش أن يذهب إلىٰ وادي السند ويدرسه جغرافيّاً وقد فعل كان يونانيّاً أيضاً.

وكان أحسن الجند والمحاربين المقدَّمين في ذلك العصر من اليونانيِّين.

وعلَّة ذلك أنَّ ملوك ذالك العصر ما كانوا يرون أُولئك غير إيرانيّين، فجميع اولئك كانوا في نظرهم رعيَّة إيران الكبرىٰ.

وعليه ما المانع أن يكون سكَّان القسم المركزيّ القريب من العاصمة من الطبقة الرابعة، أي الصنّاع والكادحين، والمستنيرون والحاذقون والأطبَّاء والمديرون والمحاربون من اليونان ومصر وسواهما من أنحاء المملكة؟

فهؤلاء نأتي بهم من تلك الأصقاع، والحرفيّون من ديارنا، وكلُّ شيء مرتبط بنا ولا ضير علينا في استخدامه علىٰ وفق ما نريد.

وعلىٰ أساس هذا الفكر نستطيع أن نقول عن عالم ذلك العصر الرفيع إنَّه إيرانيّ. ولا نواجه فيه يونانيّاً ولا مصريّاً أو هنديّاً.

وهذا لا يعني أنَّ هؤلاء لم يكونوا بين الإيرانيِّين مع أنَّ المصادر التاريخيَّة لتلك الحقبة قليلة جدًّا وهي غالباً يونانيّة، واليونانيُّون ليسوا أقلَّ تعصُّباً لأنفسهم وأثرةً من غيرهم، بل يجب القول إنَّ لهم اليد الطُّولىٰ في ذلك، وهم القائلون بوجودهم ووجود غيرهم في المراتب العليا من الدولة الإيرانيَّة في ذاك الزمان.

والقضاء في هذه الدَّعوىٰ غير ميسور في الواقع.

ومن المأسوف عليه أنَّنا لا نواجه في إيران أو الهند مثلاً ما نواجهه من المعالم الواضحة في فرع من الفروع المتجلِّية لدىٰ الفينيقيِّين والآشوريين والكلدان واليونانيّين والمصريِّين.

فقد كان الإيرانيُّون الساكنون في الأراضي التركيّة المتاخمة للبحر الأبيض المتوسّط والفينيقيُّون في الشام الكبرىٰ أبرز من الإيرانيّين في العلم والمدنيَّة.

هذا هو وضع إيران العلميُّ والاقتصاديّ، وقد كان حسناً جدًّا، حتَّىٰ إنَّه يتيح لنا أن نعد شعبها حينذاك غنيّاً ومرفَّهاً بالإضافة إلىٰ العرب.

الدِّين في العصر الهاخامنشي

كان الدين المنتشر في إيران علىٰ ما تفيد المصادر الموجودة هو الزردشتيَّة التي تمتاز بالاعتقاد بربٍّ واحد هو آهورمزدا، أي الإله صاحب العظمة والعقل.

فهي تدعو إلى الاعتقاد بآهورمزدا على أنَّه الإله الواحد الخالق للعالم، والاعتقاد بسلسلة أرباب من الدرجة الثانية والثالثة والملائكة والاعتقاد بالمعاد والقيامة الذي هو مسألة مهمَّة جدَّاً، والاعتقاد بعمل الخير.

وما يسترعي الانتباه هنا وهي سرعة انتشار الإسلام في المشرق، وذلك لأنَّ الإيمان بالله والمعاد ووجوب العمل الصالح كان منذ أقدم العصور جزءاً من التربية الدينيَّة في إيران.

ثمَّ امتزجت المزدائيَّة بالخرافات. ظهر مصلح لهذا الدين في مكان ما من إيران هو زرادشت الذي نقل عنه التاريخ النقائض العجيبة.

ولا بأس بأن أنقل لكم لطيفة تاريخيَّة ترتبط بزرادشت وظهوره الذي قيلت فيه أقوال عجيبة فيما تدلُّ القرائن التاريخيَّة مجتمعة علىٰ ولادية في حدود القرن السادس قبل الميلاد في عصر تقاربت فيه مملكتان ذواتا دين مشترك وجذور مشتركة هما الهند وإيران اللتان نواجه فيهما وضعاً متشابهاً.

ففي إيران دين موغل في القدم، وهكذا في الهند، فهنا

المزدائيَّة، وهناك البرهميّة التي تشبه الزردشتيّة في كونها غير معروفة البداية.

وإذ امتزجت الديانتان بالخرافات ظهر زردشت في إيران لإصلاح المزدائية، وظهر بوذا في الهند لإصلاح البرهميَّة.

وسيرة الرجلين وتاريخ ظهورهما وختام حياتهما في غاية التشابه.

وبعد ستة قرون من ذلك ظهر في المنطقة الساميَّة دين جديد أصيل لإصلاح دين توحيديٍّ أصيل غلبت عليه الخرافات والبدع، وكان هذا الإصلاح علىٰ يد السيِّد المسيح الذي جاء لتنقية اليهوديَّة الموحِّدة من شوائب الشرك، وكان القسم الأكبر من سيرته يشبه سيرة بوذا وزرادشت.

وإنني لراغب في أن أهتبل الفرصة لأقارن كثيراً بين سير هؤلاء، ولا سيَّما بين سيرة بوذا وزردشت، لأحظىٰ بنتائج مشرقة في هذا المجال، فهما متشابهتان غاية التشابه، وكلتاهما تشبهان ٥٠٪ من سيرة المسيح.

ومن النكات اللطيفة الواردة في شأن زرادشت والمسيح أنّ تواريخ المسيحيَّة تفيد بأنَّ المسيح بعث وسنّه ثلاثون سنة.

وقيل عن زرادشت إنّ آهورمزدا بعثه لإصلاح المزدائيَّة وسنّه ثلاثون سنة أيضاً.

وقبل أن ينهض زرادشت بحركته الإصلاحيَّة تفيد الوثائق التاريخية الموجودة حتَّىٰ الآن بأنَّ المسؤوليّة الدينيَّة كانت بعهدة طبقة العبَّاد التي كانت في إيران خاصّة في أذربيجان تحرس معابد النار.

ويقال: إنّ زردشت نفسه كان أوَّل رجل من هذه الطبقة أو إنَّه

علىٰ صلة وثيقة بها وكان يرغب في الانتماء إليها.

وفي كتائب الهاخامنشيين تكرَّر ذكر هذه الطبقة من دون أن يراد اسم زرادشت وفي أناشيد الزردشتيين لم تذكر تلك الطبقة إلّا مرَّة واحدة، ولم يرد منها اسم داريوش والهاخامنشيين أصلاً.

فهل كان دين الهاخامنشيين في عهد داريوس المزدائيَّة، أو الزرادشتيَّة، أو كان لهم أدْيان شتَّىٰ؟

ليس هذا واضحاً لنا.

والمسلَّم لنا أنَّ اليهود في ذلك الزمان كانوا علىٰ دين واحد، وقد حظوا بتأييد داريوش لهم.

وهذا ما ورد في كتب اليهود المقدَّسة.

والثابت في التاريخ مسلَّماً به أنَّه كان في إيران أديان مختلفة.

ولعلَّه لم يكن للحكومة في ذاك الزمان دين رسميّ.

وعدم ذكر زرادشت في كتائب داريوش، وعدم ظهور اسم في أناشيد الهاخامنشيين يمكن أن يكونا قرينة تاريخيَّة علىٰ أنَّ حكومة الهاخامنشيين كانت منفصلة عن الدين أصلاً.

فالدين كان مرتبطاً بالرَّعيَّة، والحكومة كان لها سبيلها الخاصُّ بها.

وفي عهد الساسانيِّين حظي الدين بمؤازرة الدولة، وظهر الدِّين الرسميُّ، ولذا يجب التحقيق في هذا العهد علىٰ حدة، لما له من معالم تاريخيَّة خاصَّة به تحظىٰ بأهميَّة خاصَّة عند ظهور الإسلام.

فجار العرب الشرقيُّ كان ينعم بسعة الأرض والعظمة والمنافع الطبيعيَّة والتقدُّم الاجتماعيّ والصناعيّ والإداريّ وقيام الدولة المنظَّمة

والسابقة التاريخيَّة، فقد سبق بلاد العرب التي أشرق فيها الإسلام بحدود اثني عشر قرناً من التمدُّن.

فما الذي حدا هذا الجار المتقدِّم علىٰ التسليم بسهولة لتلك النهضة التي أشرقت في الحجاز؟ هذا ما نتناوله بالبحث.

إيران في العصر الساساني

كان وضع إيران في زمن الساسانيين ممتازاً، والنُّكات التي تذكر بشأن هذا العهد تبيِّن لماذا تقدَّم الإسلام تقدُّماً سريعاً في إيران.

وسنشير إشارة مقتضبة إلىٰ الاستعداد والتهيُّؤ الحاصل للإسلام في إيران قبل مئتين أو أربع مئة سنة من ظهوره.

ففي سنة ٢٢٤ قبل الميلاد، يعني في القرن الرَّابع قبل الإسلام حلَّت حكومة الساسانيِّين محلَّ حكومة الأشكانيِّين.

وفيما كانت الحكومة الهاخامنشيَّة فارسيَّة الجذور لم تكن الحكومة الأشكانيَّة كذلك.

وقد انبعث الساسانيُّون من تلك الجذور الفارسيّة في ظلِّ رجل اسمه اردشيربابكان من أُسرة ساسانيَّة كان من قادة أردوان الخامس آخر ملوك الأشكانيِّين، وقد صمَّم علىٰ إقامة حكومة مركزيَّة في إيران علىٰ نحو ما كانت عليه في زمن الهاخامنشيين، فاختار فارس التي تضمُّ خوزستان الحاضرة.

وفي مدَّة يسيرة استطاع أن يجيش جيشاً قويَّاً مجهزَّاً ويتسلَّم زمام الأُمور في إيران، فقامت بمساعيه حكومة قويَّة بسطت نفوذها علىٰ رقعة واسعة علىٰ نحو ما كان الوضع في زمن الهاخامنشيين.

الحكومة الدِّينيَّة المقتدرة

كان أردشير من أبناء الساسانيين وذا دين:

ومن الناحية النفسيَّة الوراثيَّة والتربويَّة إذ قلنا بها، فإنَّ أردشير من أبناء ساسان الذي كان متديِّناً.

ولذا كان هذا من البواعث الأصليّة لإقامته حكومة دينيَّة، أي اتِّخاذ دين رسميٍّ للدولة، وبناء مؤسّسات دينيَّة، لتقوم الحكومة علىٰ قاعدتين أساسيّتين هُما الدِّين والقوَّة.

أي أن تحظىٰ بجيش قويٍّ وإدارة حازمة وقدرة معنويَّة.

فهل هذا اللون من التفكير إلهام شخصيٌّ اختصّ به أردشير؟

أعني هل كان يفكِّر هكذا لأنَّه ابن أُسرة متديِّنة، أو أنَّ فكره نبع من ضرورة اجتماعية؟

قصدي هل كان فكره نابعاً من دين يؤمن بإدارة الحياة، أو أنَّه درس الوضع في إيران في زمانه ورأىٰ أنَّ إدارتها بحكومة منَّظمة قويَّة هي الأُسلوب الأحسن والأسهل.

ليس لدي حتّىٰ الآن جوابٌ واضح عن هذا السؤال.

ومن المسلَّم به أنَّه مع قيام حكومة دينيَّة في زمن الهاخامنشيّين كانت هناك حُرِّيّة دينيَّة تعم البلاد من أقصاها إلىٰ أقصاها.

وكان لكلِّ فئة دينها غير أنَّ الدين الشائع في ذلك الوقت هو الزردشتيّة، في حين أنَّ اليهودية وأدياناً محليَّة صغيرة كانت موجودة، وقد كان كلٌّ مشغولاً بدينه.

ولم تكن المسيحيَّة قد ظهرت في ذلك الوقت.

وإذا رأينا الصائبيَّة قديمة، فقد كانت في ديار الفينيقيين.

وما كان لحكومة الهاخامنشيين دين رسميٌّ علىٰ الرغم من وجود طبقة دينيَّة ممتازة في المجتمع.

وهكذا كان الوضع في زمن الأشكانيِّين.

الزَّردشتيّة دين رسميّ

رأىٰ أردشير أن يكون للدولة دين رسميٌّ تنبثق عنه حكومة دينيَّة، وأنَّ ذلك الدين هو الزردشتيَّة.

وربَّما توفَّرت أدلَّة علىٰ أنَّ هناك ضرورةً اجتماعيَّة دعت إلىٰ ذلك الأمر، وجعلت أردشير يبني إيران علىٰ أُسس من ماضيها الدِّينيّ ويحيي شعبها بروح دينيَّة ويصل نسبه إلىٰ الهاخامنشيين ليقول إنَّه من سلالة كورش الذي كان له أثر حسن في النفوس.

واختار الزردشتيَّة ديناً للدولة، لأنَّها كانت ديانة إيرانية ذات أتباع كثيرين.

واستثمر هاتين الوسيلتين في دعم الدولة وبسط نفوذها مقيماً حكومة ممتزجة بالدِّين منبعثة من ضرورة اجتماعيَّة ماسَّة إليها.

وربَّما لم يكن الأمر كذلك، وإنّما كان ميلاً شخصيّاً.

والمسلَّم به علىٰ كلّ حال هو أنَّ وصول الساسانيين إلىٰ السُّلطة أمر جديد في إيران وهو أنْ تحظىٰ الحكومة بدين رسميّ.

وقد كانت الزرادشتيّة منافساً قويّاً للدولة في عصر الهاخامنشيين في حدودهم الغربيَّة، أي اليونان التي كانت تشمل قسماً من تركية وسورية حتَّىٰ ظهور الاسكندر، ولم يكن فيها حكومة مقتدرة، إلّا أنَّ حكوماتها الصغيرة كانت ذات شأن.

فحكومة أثينة كانت ضئيلة بالإضافة إلىٰ إيران من حيث السعة والكثافة، لكنَّها كانت عظيمة من حيث التمدُّن والحضارة والفكر والقدرة البحريَّة والتسليحيَّة علىٰ نحو يزعج إيران.

وفي عهد الهاخامنشيِّين كان المنافس أو الجار الغربيُّ بالآخر الجدير بالاهتمام الإيـراني هو الكلدانيّين والبـابليين والآشوريين في العراق وسورية وجزء من تـركية الـذين أماطهم الهـاخامنشيّـون عن طريقهم وسخَّروهم لمصلحتهم.

فلم يبق لهم منافس قويّ سوىٰ اليونان.

أي أنَّ الساسانيِّين لم يجابهوا بقوّة اليونان، فرومة وإيطالية وإن كانت ذات حكومة في زمن الهاخامنشيين، فإنّها لم تكن ذات شأنٍ، إلّا أنَّها حظيت بعد ثمانية قرون بحكومة قويَّة ومملكة كبرىٰ عاشت في زمن الساسانيّين، وكانت حاضرتها رومة، ودينها النصرانيَّة.

وفي شمال إفريقية كانت مصر في ذلك العصر علىٰ حالها تنعم بتاريخ قديم جدَّاً من المدنيَّة.

وهكذا كان جزيرة كـريت وسيشل تنعمـان بمدنيَّـة موغلة في القدم.

ويتسنَّىٰ القول علىٰ كلِّ حال إنَّ أُوربّة الجنوبيّة كـانت تحت هيمنة حكومة مقتدرة تتمركز في رومة وتعتقد بدين الدولـة الرسميّ الذي هو المسيحيَّة.

فهل كان نفوذ المسيحيَّة في ذلك التاريخ أو ما قاربه واتّخاذها ديناً رسميَّاً كان منبعثاً من ضرورة اجتماعيّة علىٰ نحو ما رآه أرْدشير؟

هذا ممَّا يستحقُّ البحث الجادَّ عنه.

عموماً كان الجار الغربيُّ للساسانيّين حكومة واسعة قويَّة تعتقد بالمسيحيَّة وتتمركز في رومة.

وبين مملكتي إيـران ورومـة بقـايـا الكلدانيِّين والآشـوريين والبابليين الذين كانوا تخمشهم هذه المملكة مرَّة وتلك المملكة مرَّة.

فالشرق الأوسط علىٰ ما يذكر التاريخ لم يكن منطقة هادئة، ولا سيَّما في الزَّمن الذي كان لإيران والروم فيه كلمة مهمَّـة في مصير الدُّنيا.

والثابت أنَّ حكومة الساسانيِّين قامت علىٰ أسـاس جديـد هو الدين الرسميُّ الذي كان جهازه رعاة المعابد وحرسة النيران الذين ضغطوا أصحاب الديانات الأُخرىٰ والأقليّات المذهبيَّـة بتشريفـاتهم الواسعة وحْمـاية الـدولة لهم، حتّىٰ إنَّ الشّـدَّة باتت عنـوان معاملة الحكومة لهذه الاقليَّات غير الزرادشتيَّة طوال العصر الساسانيِّ تقريباً.

ويجب الالتفات إلىٰ أنَّه لم يكن في إيران غموض سنة ٤٢٧ من الحكم الساسانيِّ فقد كان فيها حكومـة ذات دين رسميٍّ مادَّتـه الأساسيَّة طبقة خاصَّة مقتدرة هي الكهنة ورعاة المعابد الذين كانـوا يضغطون أصحاب الديانات الأُخرىٰ طوال تلك القرون الأربعة.

وعلىٰ الرغم من ذلك ظهرت آثار لتلك الديانات، ولهذا كان للبوذيَّة وأديـان هنديَّـة أُخرىٰ وللمسيحيَّـة واليهوديَّـة نفوذ في أفكـار الإيرانيِّين وعقائدهم.

النظام الإداريّ

والميزة الثانية للحكومة الساسانيَّة هي النظام الإداريُّ المحكم القائم علىٰ كثرة الأجهزة ودقَّة التخصص وضبط الحساب وتنفيذ الأوامر.

وقد كان للكتابة سيادة علىٰ الإدارة في العصر الساسانيّ.

ويمكن القول: إنَّه بعد مجيء الاسكندر إلىٰ إيران وما سبقه كانت إيران قد طوت مرحلة تكامليّة.

وفي هذا العهد كان لطبقة الكتَّاب الذين كانوا يدعون المديرين والعاملين في مكاتب الدولة نفوذ أوسع مما كان لهم في السابق.

ولهذا كان لهم تأثير كبير في الحياة العامَّة، فلم تكن الكتابة محطَّ اهتمام الحكومة فحسب، وإنَّما كانت محطَّ اهتمام الدِّين أيضاً.

وفي السنين الأولىٰ من عمر الحكومة الساسانيَّة كان (اوستا) غير مدوَّن وإنَّما كان يحفظ في الصدور منتقلاً من جيل إلىٰ جيل يحوِّله حفظته من صدر إلىٰ صدر.

وبهمَّة رعاة المعابد (موبدان) دوِّن هو وشروحه المفصَّلة مثل (زند) و (بازند) أي (تفسير اوستا) و (شرح تفسيره).

وكتبت العقائد الدِّينيَّة ونظِّمت.

ومن أجل الانتباه علىٰ نفوذ الدِّين وأجهزته في الحكومة الساسانيَّة نقرأ نصَّاً لمرجع الزردشتيين وكبير علمائهم في زمن أردشير بابكان أوَّل ملك ساسانيٍّ، وهو:

«أحكم الدِّين المزدائيّ بيدي، ونال الحكماء بحقٍّ المقام الرفيع الكريم، وحوسب الأتباع المرتابون والموسوسون أو غفر لهم باعترافهم بذنوبهم، وشيدت معابد النار، ونصِّب عليها الرُّعاة بأمر الخالق، وأيَّدنا الملك وأنا مناصبهم في أرجاء بلاد إيران وبنيت بيوت النار المتعدِّدة، ومنع نكاح ذوي الأرحام الماسَّة ثانية، وعاد إلىٰ الله بإرْشادي.

ورفع التاج عن رؤوس الكثير من أهله، ووجد الدِّين الرونق والجلال، وظلَّل أمر الله كلَّ مكان.

ولو كتبت كلَّ الأعمال المنجزة لطال الأمر كثيراً.

وفي كلِّ مكان وطئه جيشنا قام معبد للنار في أنطاكية وطالس وإرْمينية وجرجانية.

أقمنا بيوت النار المقدَّسة في كلِّ مكان».

وبناء علىٰ هذا يتبيَّن أنَّ الحكومة الساسانيَّة تسلَّمت مقاليد الأمور في إيران مولية المديرين وكتَّاب الإدارة ومراجع الدِّين نفوذاً مشهودا.

ولمعرفة نفوذ المديرين والعاملين في الدولة ننقل شيئاً من قول هنري ماسه الذي هو من الاوربيِّين الملمِّين بشؤون إيران، وهو:

«كانت شؤون الدولة بيد صدرها الأعظم الذي كان يديرها بإشراف الملك المباشر.

وعند سفره أو ذهابه إلىٰ الحرب ينوب عنه الصدر الأعظم الذي هو كبير علماء الدِّين.

ومن هذا يعرف من تشكيلات المملكة أنَّ الصدر الأعظم كان

من أجل الملك، وكان ذا تأثير في الدولة لم يحظ به أمثاله في المراحل السابقة.

ومع أنَّ القدرة في ذاك الزمان هي لآمر الجيش وقادته، فإنهم كانوا تابعين للصدر الأعظم.

ومن أجل الاطِّلاع علىٰ مزج حياة الناس السياسيَّة بالدِّين تقتطف هذا المقطع من قول هنري ماسه أيضاً:

كان عدد لا يحصىٰ من مراجع الدِّين يتدخَّلون في أُمور الناس المهمّة، ويراقبون حياتهم اليوميَّة، ونالوا بذلك ثروة طائلة، وصاروا ببسط نفوذهم علىٰ مرافق الحياة دولة مستقلَّة داخل الدولة.

وشكَّلوا أحياناً مع الأشراف والمترفين جبهة علىٰ الملك.

وكان تعدُّد الصفوف هذا باعثاً علىٰ ضعف الحكومة الساسانيَّة».

وقد جئنا بهذا المطلب ليتجلَّىٰ أثر الدين في الحياة الاجتماعيَّة والسياسيَّة الإيرانيّة في القرن الرابع قبل الإسلام.

فالدين والحكومة فوائد ومضارُّ في إعداد إيران لقبول الإسلام.

فمعلما الحكومة الساسانيَّة هما مزج السياسة بالدِّين ونفوذ مراجع الدين في المؤسسة الرسميَّة والمذهبيَّة.

ومما يسترعي الانتباه وجود مدرسة دينيَّة وكلِّيَّة للمعقول والمنقول في ريٍّ يجب علىٰ رجال ذلك الدين أن يدرسوا فيهما، لينالوا الدرجات المناسبة لدراساتهم.

ومن المتنفِّذين في ذلك الوقت رجال الإدارة وكتّاب الدولة والعاملون فيها.

وعلىٰ ما قيل في الأبحاث السابقة كانت الحياة الإيرانيَّة مقسومةً علىٰ طبقات مختلفة تغيَّرت في العصر الساسانيِّ.

الطبقات الاجتماعية

وانقسم الناس في زمن الساسانيِّين علىٰ طبقة مترفة متنعِّمة وطبقة بائسة محرومة، وعظمت الهوَّة بين الطَّرفين.

وكان المترفون هم المديرين ومراجع الدين والعسكريين والأشراف.

أمَّا المحرومون، فهم الصُّنَّاع والفلاّحون وأرباب المهن.

وقد عاش الممتازون عيشة راضية ناعمة أيَّام الساسانيِّين ولا سيَّما في زمن الملك المعروف لنا نحن الشرقيِّين أعني كسرىٰ أنو شيروان الأوَّل.

ففيما حظوا بالرفاهية التامَّة أُعفوا من الخدمة العسكريَّة الإجباريَّة ودفع الضرائب.

وفرض كلُّ فادح من التكاليف علىٰ أُولئك الكادحين خصوصاً الرِّيفيِّين، فالحرفيون كانوا معنيِّين بدفع الضرائب الباهظة مقابل عدم مشاركتهم في الجيش.

بينما يدفع الريفيُّون الأموال والأرواح ضرائب ومشاركة في الحرب وما يكادون يبلغون نصيب (كل لئلاّ تموت).

فالاختلاف بين الطبقات كان فاحشاً للغاية في ذلك العصر.

السياسة الخارجيَّة

في العصر الساسانيِّ الطويل الذي استغرق اكثر من أربعة قرون طبعت الحرب بين إيران والروم صفحات السياسة الخارجيَّة للساسانيِّين.

وممَّا يستلفت النظر في هذه الحرب أُمور منها أنَّها كانت دينيَّة، ففي مطالع القرن الخامس الميلاديّ ظهرت فرقة من المسيحيين في سورية تسمَّىٰ النسطورية نسبة إلىٰ نسطوريوس أُسقف القسطنطينيَّة الذي اعتقد بأنَّ المسيح إنسان لا ربٌّ، فكفِّر ونفي إلىٰ ليبية.

وحظيت النسطوريَّة بالرَّواج في الشرق الأوسط وازداد أتباعها.

ورغبة في غلبة العدوِّ القويِّ وكسر شوكته آوت الحكومة الزردشتيَّة النَّساطرة وأكرمتهم حتَّىٰ نجحوا في التأثير فيها وتمكَّنوا من بناء كنيسة لهم والدعوة إلىٰ عقيدتهم في إيران.

ومن تلك الأُمور أنَّ ملوك الروم رأوا أنَّ في إيران حكومة مركزيَّة قويَّة تزعجهم أحياناً وتفكِّر بالاستيلاء علىٰ مملكتهم باجمعها، وأنَّهم بعيدون عن التأثير في إيران وصدِّ تحرُّكاتها عنهم، فصمَّم أحد ملوكهم الأقوياء وهو قسطنطين الأوَّل أن يؤسِّس له عاصمةً في الشرق، فاتَّخذ بيزنطة عاصمة له وسمِّيت باسمه.

وحدث هذا فيما كان ملك إيران يفكِّر بآتِّخاذ عاصمة له في الغرب أيضاً تمكنه من ضغط عدوِّه، فاختار تيسفون في العراق حاضرة له.

وكان اتِّخاذ الروم بيزنطة عاصمة لهم وانتقال سلطتهم إليها مدعاةً لتحوُّلات كثيرة في ذلك العصر أهمُّها تجاور ذلكما العدوَّين القويين الدَّائمي النِّزاع والحرب فيما بينهما لا من أجل مبدأ وغاية سامية، وإنَّما ابتغاء الغلبة والتوسُّع والتسلُّط علىٰ العالم بالفتح والقهر.

فدافع تلك الحروب المريرة رغبة شخصيَّة محضة في الهيمنة والاستبداد.

وعليه نرىٰ سياسة إيران الخارجيَّة في ذلك العهد مطبوعة بالطَّابع الدِّينيِّ وويلات أربع مئة سنة من القتال المستدام تخلَّله صلح بين إيران والرُّوم استمرَّ مئة سنة.

وقد بلغ الشرُّ ذروته بين الطَّرفين أواخر القرن السادس الميلاديّ، فقد حصلت حرب طاحنة بين خشرويرويز وهرقل (هراكليتوس) استنزفت طاقتيهما.

وكلا هذين الملكين عاش في صدر الإسلام، وكلاهما كتب إليه الرسول الأكرم يدعوه إلىٰ الإسلام.

وسنتحدَّث عن حربهما فيما بينهما حديثاً كافياً عندما نتناول ظهور الإسلام.

ظهور ماني

بدأت حكومة أردشير بحمايتها للدين الزردشتيّ.

وبعد موت أردشير جاء ابنه شايور الأوَّل الذي وسَّع رقعة الملك وهيمن علىٰ الأُمور هيمنة تامَّة.

وحينئذ سمع بظهور رجل اسمه ماني، ثمَّ تأثَّر به بعدما اجتمع به مرَّات.

وماني إيرانيٌّ ولد في ضفَّة دجلة بأرض العراق في قرية بها، وكان ملمّاً بالمسيحيَّة والزردشتيَّة والبوذيَّة إلماماً واسعاً أتاح له أن يبتدع ديناً يوفِّق بين هذه العقائد والادِّعاء بالنبوَّة.

فقد آدَّعىٰ بأنَّه نبيٌّ آخر الزمان وأنَّه خاتم الأنبياء، وإذ التقىٰ بشايور في خوزستان فتنه بدعواه، فكتب إلىٰ جميع الأمـراء والقادة بالسماح لماني وأتباعه بالدَّعوة إلىٰ دينه.

وماني الذي ظهر بعنوان مصلح للديانة الزردشتيَّة عرض علىٰ الناس تعليمات مركَّبة من التعاليم الزردشتيَّة والمسيحيَّة والبوذيَّة.

واستمرَّ ماني وأتباعه في الدعوة إلىٰ دينهم ثـلاثين سنة حتَّىٰ حظي بنفوذ واسع في إيران، إلاّ أنَّ ماني اقتيد إلىٰ محكمة في عهد بهرام الثاني سنة ٢٧٧ للميلاد بتهمة الابتداع، وحكم عليه مرجـع الزرادشتيَّة بالسجن، وبعد حبسه ستة وعشرين يوماً قتل قتلاً فظيعاً، وسلخ جلده وحشي تبناً وصلب إزاء بلاط بهرام علىٰ أنَّ ذلك عقوبة من يبتدع بدعة في الدِّين.

فلماذا أيَّد شايور ماني؟

يذهب المؤرِّخون إلىٰ أنَّ شايور رأىٰ أنَّ العقيدة الزردشتيَّة لا تروي ظمأ الناس الروحيّ ولا تجيب عن تطلُّعاتهم ولا ترضي أفكارهم، فأجاز لماني أن ينشر دينه فيهم بدعوىٰ الإصلاح إرضاء لطموحاتهم وتجديداً لمشاعرهم.

وهذا يعني أنَّ الزرادشتيّة التي يتَّبعها بعض الناس اليوم ويدعون إلى إحيائها في أنحاء من ديار الإسلام علىٰ حساب الإسلام كانت قبل عدَّة قرون من ظهور الإسلام عاجزةً عن إرواء النفس الإنسانيَّة دينيّاً، حتَّىٰ إنَّ ملكاً جبَّاراً هبَّ لسدِّ نقصها وأجاز رجلاً بارعاً مثل ماني أن ينشر أفكاره بدعوىٰ إصلاحها.

ويجب ألّا يغيب عن البال أنَّ هذا يعني أنَّ حكومة إيران في ذاك الزَّمن كانت تعاني من خللٍ دينيّ.

وكان للمانويَّة نفوذ عجيب جدَّاً، فقد سرت أمواجها في الدنيا واستولت علىٰ النفوس لا بكونها ديناً، بل بكونها فلسفة، وامتدَّت من الصين إلىٰ أوربَّة واستوعبت حتَّىٰ فرنسة وبريطانية، ولهذا قصَّة طويلة.

ظهور مزدك

والقضية الأُخرىٰ اللافتة للنظر من الناحية الدينيَّة في عصر الساسانيِّين هي ظهور مزدك.

ففي عهد قباد أبي أنوشيروان ظهر رجل اسمه مزدك بدين جديد فيه ما لم يكن في ما سبقه من الأديان.

ففي الزردشتيَّة جنبة أخلاقيَّة وتأييد للصدق والاستقامة وإيمان بالله وتضحية في سبيله غير أنَّها لم تلتفت إلىٰ حقوق الناس وشؤونهم الاجتماعيّة، وقد قبلت التمايز الطَّبقيَّ ودافعت عنه.

ودين ماني يعنىٰ بالإيمان والعقيدة الإلهيَّة، ولا يعبأُ بالإصلاح الاجتماعيّ عنايته بالإصلاح العقيديّ.

أمَّا ما جاء به مزدك، فهو إصلاح دينيٌّ من جانب متأثِّر بالمسيحيَّة والزردشتيَّة والبوذيَّة، أي يدعو للرياضة وترك الشهوات والإعراض عن الدُّنيا.

وهو من جانب آخر تهديد للنظام الاجتماعيِّ في ذلك الوقت، فقد قال في دينه وفلسفته:

«سعادة الناس أن يحيوا في بيئة هادئة خالية من حقد أحدهم علىٰ الآخر».

وما تحدث الحرب ولا تنشأ الخلافات بينهم إلّا من أجل الثروة والانتفاع بمرافق الحياة من منزل وملك وتجارة أو من أجل النساء.

ولرفع هذا الخلاف والتناحر تجب إشاعة الأموال والنساء بينهم».

وقد هدَّدت هذه الدعوة الوجود الطبقيَّ تهديداً شديداً، وانتشرت بين الفئات المحرومة وحظيت بأنصار كثير منهم.

وكان قباد ملكاً شابّاً مخالفاً لتسلُّط رجال الدِّين والأشراف وبقيَّة الطبقة الممتازة منزعجاً، ويرىٰ أنَّه يحول بين الحكومة وأداء وظيفتها علىٰ النحو الأحسن.

فلمَّا صدع مزدك بدعوته أيَّده تأييداً مطلقاً.

وهكذا ساد إيران نوع من الفكر الدينيِّ الثوريّ انضوت تحت لوائه عامَّة الشعب المحرومة سنة ٤٨٤ للميلاد، أي قبل ظهور الإسلام بمئة وخمس وعشرين سنة.

فتناثرت أغلال التكاثر وديست الحياة المترفة وأُلغيت الملكيَّة إلغاء تامّاً وتشارك الناس في النساء والرِّجال، وطويت الأسرة من التعامل، وحلّت الفوضىٰ والاضطراب علىٰ الصعيدين الاجتماعيِّ والسياسيّ.

فلم يكن ذلك المبدأ مقبولاً عند الجميع، وكان قباد يؤازره ويدافع عن مزدك علىٰ حساب رعاة الدِّين الزردشتيِّ المتنفِّذين الذين استطاعوا تجنيد تنفر الناس من ذاك السُّلوك وإفراط مزدك في دعوته التي مسَّت كرامات الناس وزلزلت قيمهم.

فعمَّ التذمُّر وتفاقم الأمر، ولم يدم الوضع طويلاً، فقد ولي الملك أنوشيروان وبولايته قتل مزدك سنة ٥٣١ للميلاد، وأصبح أتباعه شذر مذر، وعاد الزرادشة ومراجعهم إلىٰ التسلُّط علىٰ مقاليد إيران.

إيران عند ظهور الإسلام

اقترن ظهور الإسلام بضعف عجيب في حكومة إيران، فبعد خسرويرويز تلاحق عدد من الملوك والملكات في وقت قصير جدًّاً اختتم بمجيء يزدجرد الثالث.

فشرق المنطقة التي سطع فيها الإسلام بلاد واسعة تمتدُّ جذور المدنيَّة فيها إلىٰ ألف ومئتي سنة متمتِّعة بحكومات مركزيَّة متمادية في النُّظم الإداريّ المصحوب بظهور عدَّة أدْيان سجَّلت نفوذاً كبيراً في الدولة من غير أن يحظىٰ أحدها بالدَّوام.

فلا الزردشتيّة والمانويَّة ولا المزدكيَّة استطاعت الوقوف في وجه الإسلام.

فقد عاشت البلاد استعداداً وظمأً إلىٰ الانعتاق مِن أوضاعها الاجتماعية والدينيَّة والفكريَّة، فآنفتح ذلك القلب الواسع الكبير التَّعب لنور الإسلام.

والقائلون بآنتشار الإسلام بحدِّ السيف لا معرفة لهم أصلاً بذاك العصر، وإلّا فإنَّ المؤرِّخين كتبوا أنَّ الناس أخذوا يفتحون مداخل المدن ومنافذها لجند الإسلام قبل وصولهم إليها ويستقبلونهم علىٰ مشارفها.

والمسلَّم به أنَّ الحضارة الإيرانيَّة قد بادت عند ظهور الإسلام وتهاوت اجتماعياً ودينيَّاً وإداريَّاً.

أسئلة وأجوبة

*** كيف نشأت الطبقات الاجتماعيَّة؟**

في النظام الطبقيِّ يقول الأعلىٰ للأدنىٰ قولاً صريحاً: أنت لاحقَّ لك أن تفكِّر بالارتقاء إلىٰ غيرك.

وفرض فكر ما هو أصعب وأسوأ وأشدُّ مأزق تواجهه الحياة.

قد لا يتصوَّر المجتمع الطبقيُّ اليوم لبعد الناس عنه، ولكنَّه موجود دائماً بنحو ما.

فقد تضغط فئة أو أحد الناس في حال ما ضغطاً ما متذرِّعاً بهذه الذريعة المقبولة أو شبهها، وينمو هذا الضغط ويتَّسع صانعاً هوَّة بين الضاغط والمضغوط الذي يبدأ بالإحساس بأنَّه أدنىٰ من ذاك المتسلِّط عليه، ثمَّ يستسلم له مقرَّاً بفوق ذاك ودون نفسه.

وأستطيع القول: إنَّه من المأسوف عليه ألَّا يسمح أشراف إيران لآبن فقيرٍ كفءٍ أن يثبت جدارته بخدمة المصلحة العامَّة، لأنَّه ليس منهم بغضِّ النظر عن لياقته وكفايته وهذا من إرث الحياة الطبقيَّة البائدة.

والفكر الطبقيُّ جذوره ضاربة في طبيعة البشر، ولهذا لا يزول من الحياة، وإن استخفىٰ.

فتصوَّروا الآن المثال الذي ضربته لكم والسُّخرية التي تلحق من اتِّخاذه قانوناً في مجتمع لا يسمح لابن الحدَّاد أن يكون ضابطاً مثلاً كالمجتمع الهنديّ الذي يقال إنَّه ما يزال يعيش تفاوتاً رهيباً بين

الناس، ويحاسب علىٰ التفكير ومنازعة النفس إلىٰ الارتقاء عن طبقتها.

وأنا إذ أقرأ هذا لا أكاد أتصوَّره، لعدم مروره في ذهن الإنسان المسلم، فمذ جئنا إلىٰ هذه الدُّنيا ونشأنا فيها لم نألف سوىٰ أصداء المحبَّة والمساواة والأُخوَّة الإسلاميَّة التي صارت لنا طبعاً يمنعنا من تصوُّر غيرها.

غير أنَّه لا شكَّ في أنَّ فئات منتفعة بالاستعلاء والهيمنة تسعىٰ أبداً إلىٰ حفظ مصالحها بقمع من دونها.

*** من كتب كُتب الرسول الأكرم إلىٰ الملوك في زمانه وهو أُمِّي؟**

تُفيد المصادر التاريخية بأنَّ تلك الرسائل كتبها الكُتّاب الخاصُّون به، وأنَّها ليست بخطِّه قطعاً علىٰ الرغم من ذهاب مصادر تاريخيَّة إلىٰ أنَّه أخذ يكتب قليلاً في السنة الهجريَّة السادسة.

بأيِّ لسان كتبت كتب الرسول الأكرم إلىٰ أُولئك الملوك؟

كتبت بالعربيَّة، فالحاكمون في هذا العصر المتقدِّم يعرف أغلبهم غير لغاتهم، لكنَّهم يكتبون رساءلهم ويخطبون بلغاتهم.

ومن المعمول به اليوم كتابة العقود والاتِّفاقات بلغتي الطَّرفين، وعند الاختلاف يرجع إلىٰ المتن الأصليّ الذي هو في إيران مثلاً الفارسيَّة.

*** هل الهند والصين عند ظهور الإسلام كانتا مستقلَّتين، وهل بعث إليهما الرسول بشيء؟**

كانتا مستقلَّتين، وما بعث إليهما الرسول بكتابٍ، إلّا أنَّه علىٰ

وفق بعض التواريخ بعث إليهما وفداً دينيّاً لا سياسيًّاً، وذلك في أُخريات حياته.

وقد وصل ذلك الوفد إلىٰ التُّبَّت في خلافة أبي بكر، وشرعوا بتهيئة البضائع.

هذا ما ذكره التاريخ، ونحن جديرون بالتحرِّي عنه.

وحكم الهند والصين حكومات محلِّيَّة في أوضاع متلاطمة إلاّ في مراحل قصيرة من تاريخ الصين إذ سادها حكم شبيه بما كان في إيران والرُّوم، ولا أدري ما صورته زمن الرسول.

وما أرسل الرسول إليهم بشيء، فقد كان مشغولاً بترتيب الأُمور في المدينة وأطرافها ستَّ سنوات، ولو أرسل إليهم قبل استتباب الأُمور حواليه لكان فعله باعثاً علىٰ التندُّر به.

وقد ورد في حديثه: «اطلبوا العلم ولو في الصين»، أي أنَّ الصين قد وردت ورود غيرها من البلدان المتمدِّنة في ذاك الزمان في المعارف الإسلاميَّة.

ولكنَّ الرسول الأكرم لم يبعث إليها بكتاب لعدم حكومة مركزيَّة فيها، وعلىٰ فرض وجودها لا ينبغي له أن يكتب إليها قبل تسخير الأنحاء والبلدان المجاورة لدولته الفتيَّة كمصر والحبشة والروم وإيران فضلاً عن عُمان واليمن والحيرة والشام من ديار العرب.

*** كيف قرئت أوَّل كتيبة ايرانيَّة؟**

كان ذلك بتضافر جهود ثلاثة من المستشرقين الأوربيِّين.

فأوَّلهم لم تكن مقاصد الكتيبة واضحة له، فما قرأ غير اسم داريوش ويارس بعلامات استكنهها بالتأمُّل ودقَّة النظر حتَّىٰ قادته إلىٰ معرفة أبجديَّة الكتيبة مثل: ي، ا، ر، س، د، ي، و، ش.

لكن كيف انتبه علىٰ داريوش وأمثاله؟

لحسن الحظِّ أنَّ لهذه الكتيبة ترجمتين يونانيَّة وبابليَّة وهما موجودتان أيضاً، وقد أعانتا ذلك الباحث علىٰ قراءة الأسماء الخاصَّة في الأصل الفارسيِّ الأثريِّ، لأنَّ الأسماء الخاصَّة متشابهة النطق في اللغات المختلفة.

وبعد وقت من استكشاف تلك الأسماء تسنَّت قراءة ما بقي من الكتيبة.

بيد أنَّ هذا العمل استنفد عمر ثلاثة علماء استكمل اللاحق منهم جهد السابق.

مصر القديمة الحضارة

يجب الحديث أوَّلاً عن شبه الجزيرة العربيَّة ووضع الحجاز ونجد الخاصِّ، ثمَّ جار العرب الشرقي إيران والغربيِّ الروم إذا أردنا الحديث عن ظهور الإسلام.

ونأسف علىٰ ضياع هذا البحث المسجَّل صوتيًّاً.

وسيتناول البحث الآن الجيران الغربيِّين مبتدئاً بمصر البلد الموغل في المدنيَّة والقدم، وهذا ما تشهد به آثاره الباقية النفيسة التي جعلت معرفته فرعاً مهمّاً من فروع الآثار.

فالآثار المكتشفة في مصر تنير ٦٥٠٠ سنة من تاريخها.

وهذا لا تفوز به إلّا أمكنة نادرة.

فمن الآثار المكتشفة في الأهرام التي هي مقابر الفراعنة ما يعود إلىٰ ما بين ٢٠٠٠ و ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

ويكفي أنَّ أوَّل تقويم تيسَّر عن مصر يعود إلى سنة ٤٢٤١ حتَّىٰ سنة ٤٢٣٨ قبل الميلاد.

ومثل هذه الآثار نادرة غاية الندرة في غير مصر.

والقسم المهمُّ من هذه الآثار هو المقابر العظيمة والعقائد المصريَّة التي أدَّت إلىٰ بنائها علىٰ هذا النحو الهائل في ذلك العصر السحيق.

ومصر ليس هو الاسم الأصليَّ لهذه البلاد، وإنَّما هو بلغتها المحلِّيَّة كمت أو كمت الذي يعني أرض السَّواد.

ومصر أطلقه عليها بنو إسرائيل مشتقّاً من العبريَّة، ثمَّ تطوَّر إلىٰ هذا اللفظ في العربيَّة.

أمَّا الاسم الذي أطلقه عليها الأوربيُّون، فهو يونانيُّ الأصل سمَّاها به اليونانيّون بمناسبة وجود أحد ملوكهم فيها.

ويبيِّن التاريخ أنَّ أُمماً عديدة توالت علىٰ العيش في مصر الضاربة في القدم، حتَّىٰ فيما قبل التاريخ إذ عاش سكَّانها في قرىً، أي أنَّهم كانوا أُولو مدنيَّة، فمعنىٰ المدنيَّة هو أن تسكن فئة من الناس في مكان واحد مؤسِّسة هيئة اجتماعية كالقرية.

وهذا ما ألفته ضفاف النيل منذ ما قبل التاريخ.

وما يسترعي الانتباه هو وجود تقدُّم اجتماعيٍّ في مصر، إذْ تمتدُّ الحكومة المركزيَّة إلىٰ ٦٥٠٠ سنة قبل الميلاد أي إلىٰ الزَّمن الذي حصلت منه شواهد علىٰ ذاك التقدُّم والتمدُّن وأكثر هذه الشواهد مرتبط بمقابر الملوك.

وبناء علىٰ هذا، فإنَّ الحكومة المركزيَّة والنظام الإداريّ الباعث علىٰ العمران والهندسة والفنِّ والصناعة والأدب قد ظهر في مصر منذ ٦٥٠٠ سنة.

وتدلُّ كلُّ الآثار علىٰ ظهور نوع من الطبِّ العلميِّ المنظَّم نظير الطبِّ اليونانيِّ يرجع إلىٰ ٢٦٠٠ سنة قبل الميلاد.

وقد نما في كنف ذلك الطبِّ التحنيط والكيمياء نموَّاً باهراً.

وظهرت في أقدم العصور المصريَّة صناعة الأسلحة والسُّفن والفعاليات الفنيَّة والإبداعيَّة المختلفة.

وكان للحكومة المركزيَّة علىٰ عهد رمسيس الثاني جيش منظَّم

وكتائب مختصَّة استخدم فيها جنود أمن البلدان المجاورة من قبيل البرابرة في شمال إفريقية ومن سورية وتركية.

وما يلفت النظر هو أنَّ الحكومة المركزيَّة كانت تقوم علىٰ أكتاف وزراءهم والكهنة همزة وصل بين الرعيَّة والملك الذي كانوا يرونه إلهاً في صورة بشر، ويرون أنفسهم عبيده.

فالوزير إنسان يربط بين الربِّ والعبد.

ولم تنحصر الربوبيَّة عندهم بالملك، فقد كان هناك أرباب متفرِّقة منها إلٰه الحياة، وإلٰه الرجولة وسواهما ممَّا كان حتَّىٰ الملك نفسه يعتقد بها.

وقد كان لهم آلهة من غير البشر أيضاً لها معابد يديرها الكهنة المتمتِّعون بقدرة خاصَّة، فقدرة طبقتهم تقابل قدرة الفراعنة التي هي أكبر قدرة في مصر.

وكان بين هاتين القدرتين تنافس.

وسنرىٰ في البحوث المقبلة كيف استطاع الإسلام أن يكتسح تلك الأوهام ويعرض فكراً جديداً حقّاً.

القوانين والسُّنن والدِّين

كان في مصر قوانين وسنن مرجعها الفراعنة لا العدل.

وكان هناك محاكم تتألَّف من ممثِّل الوزير والنبيل ومالك الأرض، لتنظر في دعاوىٰ العامَّة.

ولم يكن في مصر قانون كقانون حمورابي علىٰ ما يقول الكتَّاب الإيرانيُّون.

ومن سنن مصر القديمة العجيبة زواج المحارم حتىٰ نكاح الأخ لأخته.

أليس من العجب العجاب أن يكون أخ زوج أُختـه، وتكون أُخت آمرأة أخيها؟

هذا ما كان شائعاً، ولا سيَّما في البلاط.

وكانت الوثنيَّة رائجة في مصر رواجها في الهند اليوم رواجاً لم يدع لغيرها صوتاً مسموعاً.

والتربية المنحرفة هي التي هيَّأت نفوسهم لعبادة الأصنام.

قد سعىٰ فرعونان كانا يعتقدان بالتوحيد إلىٰ نشر هذا الاعتقاد بين الناس، وكان اسم الإله الذي دعوا لعبادته يسمَّىٰ (آتون).

إلّا أنَّهما أخفقا في مسعاهما، وبعد موت الثاني منهما تـآزر الناس والكهنة وأعادوا الوثنيَّة، وأحرقوا الفرعون الثاني بآرتداده عن الدين الرسميِّ دين الناس الحقّ.

وظلَّت الوثنيَّة تسود مصر حتّىٰ القرن الثالث للميلاد.

وما بلغت النظر أنَّ المسيحيَّة التي أخذت في الانتشار في مصر ذلك القرن رافقها ظهور التثليث في الاسكندريَّة.

فأحسن وأثمن وأدقُّ بحث عن منشأ التثليث هو الذي يرجع إلىٰ القرن الثالث للميلاد ليجد البداية في ظلال مدرسة الأفلاطونيَّة الجديدة بالاسكندريَّة.

أي أنَّ الوثنيَّة كانت من القوَّة في مصر بحيث طبعت حتَّىٰ المسيحيَّة الواردة عليها توًّا بطابعها.

الحكومة في مصر القديمة

مرَّت حكومة مصر بمراحل مختلفة، وكانت في الغالب بيد أبنائها.

ونحن جديرون بالنظر إلىٰ هذه النكات الطريفة، وهي:

أنَّ الإيرانيين حكموا مصر قرناً، فقد فتحها داريوش وخشايار، وأدارها حاكم نصبه داريوش.

وبعد ذلك القرن من الحكم الإيرانيِّ لمصر توالت عليها حكومات محليَّة، ثمَّ فتحها الاسكندر المقدوني وبنىٰ ميناء الاسكندريَّة.

ولمّا مات الاسكندر حكمها تلامذته قروناً، ثمَّ عادت إلىٰ حكم أبنائها مُدَّة، ثمَّ غلبهم اليونانيّون عليها، واستمرَّت في الجرّ والعرّ.

وفي عهد أنوشيروان وقعت مصر في حكم الإيرانيين عشر سنوات.

وطوال عقود وقرون متمادية تنازع الفاتحون من إيرانيِّين ويونانيِّين وروم علىٰ مصر غير أنَّها لم تتأثَّر بأحد من هؤلاء تأثُّرها بالإسلام والعرب.

وهذه النكتة من أهمِّ ما نحن بصدد بحثه في استكناه السبيل التي سلكها الإسلام إلىٰ قلوب الأمم ومنها مصر.

وقد نجم ذلك عن عظمة الإسلام نفسه، فمصر لم تكن بيئة ملائمة للتوحيد وقد تعاقبت عليها حكومات شتَّىٰ خارجيَّة وداخليَّة من غير أن تدوم فيها.

فما الذي حدث لتفتح قلبها لأربعة آلاف مجاهد وجَّههم إليها عمر؟

ومن النكات الطريفة أنَّ مصر حتىٰ أكثر شمالها كان الدين المسيحيُّ مسيطراً عليها، فيما تسيطر الوثنيَّة علىٰ جنوبها مظلِّلة المسيحيَّة واليهوديَّة فيه، لأنَّ اليهوديَّة ديانة محليَّة لم تنتشر كثيراً في غير اليهود.

ولا بُدَّ من معرفة هذه المعالم العامَّة لبلدٍ يجاور مشرق الإسلام غرباً أعني مصر.

ومن النكات التي تستحقُّ التأمُّل أنَّ حاكم مصر أيَّام البعثة النبويَّة كان من الذين كتب إليه الرسول كتاباً في السنة السادسة للهجرة يدعوه للإسلام، وهو المقوقس الذي أجاب جواباً حسنا.

فمصر بلد موغل في التمدُّن متقدِّم في العلوم والفنون بالإضافة إلىٰ شبه الجزيرة العربيَّة.

ولا يغيبنَّ عن البال ما قلته من أنَّ هذا القسم من بلاد العرب أي الحجاز قبل ظهور الإسلام في مرحلة الحكم القبيليِّ في حين أنَّ مصر عاشت حكم الدولة المنظَّمة قروناً كان لها فيها جيش منظَّم وحياة علميَّة ومذاهب فلسفيَّة وصناعات مختلفة.

وكان فيها مدرسة الاسكندرية التي كانت مركزاً علمياً كبيراً مرموقاً في ذاك الزمان.

وسنرىٰ كيف استجاب هذا البلد الضارب في النظم والنظام والتقدُّم والرُّقيِّ للفاتحين المسلمين استجابة نادرة.

اسئلة وأجوبة

*** ما معنىٰ قولكم: إنَّ اليهوديّة دين قوميّ؟**

تعلمـون أنَّ اليهود أنفسهم يـرون أنَّ موسىٰ جـاء لإنقـاذ بني إسرائيل، وقلَّة منهم يعتقدون بمجيئه لإنقاذ الناس جميعاً.

ولا نقول نحن المسلمين: إنَّ محمَّداً جاء لإنقاذ العرب.

واليهود يرون أنَّهم قوم، وأنَّ هذا هو ما تدلُّ عليه كلمة يهود.

*** كيف الوضع الاجتماعيُّ في مصر قبل ظهور الإسلام وأوائل ظهوره؟**

عاشت مصر في ذلك الزمان حياة وثنيَّة، والوثنيَّة لا تعنىٰ علىٰ حسب الظاهر بالشؤون الاجتماعيَّة.

وقد عرفتم أنَّ الفراعنة والكهنة كانـوا يحاربـون كلَّ نـوع من التوحيد.

ما علَّة هذه المحاربة؟

لأنَّهم كانوا يعرفون أنَّ التوحيد ليس عقيدة وحسب، وإنَّما هو منهج لتنظيم حياة الناس والتأليف بينهم تأليفاً تنعدم فيه الفوارق.

أي أنَّ الفراعنة والكهنة أدركوا خـطر التوحيـد عليهم، فسعوا سعيهم لتثبيت الوثنيَّة.

وكانت مصر حينئذ فريسة لمالكي الأراضي المستحوذين علىٰ أُمور الناس، حتَّىٰ إنَّهم كانوا يديرون مدناً كاملةً علىٰ ما يشتهون.

وكان الرِّقُّ في مصر شائعاً منذ عصور بعيدة جدًّاً بأخشن صورة

وأقبحها، فقد قتل خمسون عبداً من أجل كلِّ صخرة من صخور الأهرام.

ففي القِصَصِ الخاصَّة بمصر القديمة أنَّهم كانوا في فتح الطُّرق يشدُّون أعمدة يضعونها تحت الصخور الكبيرة بالحبال ويسحبها ألف قنّ دفعة واحدة بأمر مراقب العمل ويرفعونها.

*** لِمَ تقلع هذه الصُّخور العظيمة؟**

تُقلع وترفع لبناء قبر لفرعون من الفراعنة يودعونه جثمانه المحنَّط مع أدواته وأثاثه لينتفع بها في الحياة الخالدة التي انتقل إليها.

ولا بدَّ أن يكون هذا القبر عظيماً قادراً علىٰ صيانة جثمان هذا الربِّ المودع فيه هو وأثاثه من غير الزمان وكفِّ الحدثان.

كُلَّ غاية هذا التبديد لتلك القوَّة الإنسانيَّة بذاك الوضع الخشن هو هذا، في حين أنَّ زاد أُولئك الأقنان لم يكن سوىٰ الجوع والأذىٰ، فما كانوا يطعمون حتَّىٰ بمقدار ما يبذلون من الجهد الجهيد.

وموت خمسين قنّاً في رفع صخرة في ذلك الوقت كموت خمسين ذبابة.

لقد كان النمط الاجتماعيّ في مصر خشناً خشونة لم نجدها في إيران القديمة المعروفة بطبقيَّتها القاسية، فما كان للعبوديَّة والرِّقِّ في مصر نظير لا في الروم ولا في اليونان.

وإذا نظرنا إلىٰ أوضاع البلدان عند الفتح، وجدنا الفوضىٰ والاضطراب يحكمان أوضاعها كافَّة، ورأينا الغضب علىٰ الفاتحين والتذمُّر منهم يغليان في الصدور.

فالاسكندر الذي حمل معارف اليونان إلىٰ إيران المتمدِّنة لم

تستتبَّ له الأمور فيها ولم يفز بأدنىٰ رضاها.

وإذ اجتاحتها خيول جنگيز لم يبق من قهرها سوىٰ أصداء اللعنات.

بينما هرعت عن بكرة أبيها لاستقبال المسلمين وهم يحملون إليها القرآن الذي انطوىٰ عنها كلُّ شيءٍ ما عداه.

وهكذا الأمر بالنسبة إلىٰ مصر الذي سبقت قلوبها أبدانها في استقبال الإسلام الذي غادرها أو اندثر فيها كلُّ شيء حلَّ فيها قبله أو بعده وهو حيٌّ في كلِّ ضمير.

ومن الشواهد علىٰ هذا كتاب صغير لأستاذة في الجامعة الإيطالية هي لورا فاكسيا فاگليرى عنوانه (تقدُّم الإسلام السريع) وهو يكشف عن دهشة هذه الأديبة المُحقّقة من سرعة انتشار الإسلام.

وهذا ما سيتَّضح لنا في المباحث الآتية، فلولا صفاء الإسلام لما ظهر ولا انتشر وقد أقرَّت دائرة المعارف في مادَّة مصر بأنَّ المسيحيّين في مصر هبُّوا لاستقبال الفاتحين المسلمين.

انحصرت المسيحيَّة بعد شروق الإسلام وما انحصرت قبله، وما انتشرت دعوة في التاريخ انتشار الإسلام السريع بلا عقبات ذات شأن.

فهل انكماش هذه القوَّة وتجييشها الجيوش لم يكن لصدِّ شيء؟

تمركز المسيحيّة الذي نشهده اليوم بنحو ما يرجع إلىٰ ما قبل الإسلام، فقد بدأ بالاجتماعات التي كان الكرادلة والأساقفة يعقدونها للنظر في شؤون التبشير وإصلاح مناهج التبليغ أيَّام قسطنطين قبل الإسلام بعشرات السنين.

فالمسيحيّة انكمشت كما قلتم إزاء نفوذ الإسلام، ومالت إلىٰ احتلال البلدان.

وعلىٰ وفق ما قرأتُ عن رومة في ذلك الزمان يمكن القول إنّ ملك ملوكها كان قد اتّخذ مصر مستودعاً لغلّات مملكته، ودام هذا قرونا.

وما كان وضع أُوربّة حينذاك وضعها اليوم.

فوضعها اليوم عجيب جدًّا، فلو أردتم الإحاطة بها اليوم لوجدتموها عاجزة عن إعاشة ساكنيها إذا أغلقت حدودها وأقبلت علىٰ استيثمار خيراتها بكلّ طاقاتها العلميَّة والصناعيَّة إلّا إذا تذرَّعت بالاحتيال والمغالبة.

فهؤلاء ـ في رأيي ـ ناس مريدون فعّالون أقوياء مجهَّزون بالعلم والفنِّ يتوسَّلون بالمشروع وغير المشروع إلىٰ جعل حياتهم أرضىٰ من غيرها واستبقاء ذلك.

أعني أنَّهم أولو علم وفنٍّ وعمل وابتكار مستمرٍّ وإرادة فاعلة تُسخِّر كلَّ ذلك لتحسين حياتهم والارتقاء بها ممزوجاً بالمكر والخبث والخسَّة والدَّناءة.

ويمكنكم أن تلمسوا هذه الحقيقة في ماضي أُوربّة أيضاً بأحوال مختلفة.

فما تجهَّز اليونانيّون بالعلم والفنِّ والاستعداد القتاليِّ ومهاجمة غيرهم، إلّا ليعيشوا عيشة طيِّبة.

وما كانت رومة تختلف عنهم في هذا كثيرا.

ولم أقرأ عن الشرق لأرىٰ أكان كذلك أم لا.

فآجتياح المغول وأمثالهم يبدو عدواناً أهوج، لكنَّ هذا النظر السطحيَّ لا يكفي للحكم بهذا عليهم.

فيجب البحث عن ذلك بوعي واستيعاب، لأنَّ من المؤرِّخين من يرىٰ أنَّ لذاك الاندفاع جذوراً أُخرىٰ.

الحبشة قبل ظهور الاسلام

الأوضاع العامَّة

بعد الاطِّلاع علىٰ أحوال الجيران الجنب للعرب في إيران ومصر يصل بحثنا إلىٰ الحبشة التي لها أثر مهم في تاريخ الإسلام.

الحبشة في ذاك الزمان تختلف عنها الآن، فقد كانت تضمُّ ساحل اريترية، اي البحر الأحمر، والصومالين الانجليزيّ والفرنسيّ وقسماً من السودان.

فقد كانت مملكةً واسعة ذات تاريخ عريق، ولو أنَّها لم تبلغ ما بلغه الإيرانيُّون والروم، فهي نظير اليمن.

وملوكها وشعبها من جنوب البحر الأحمر وغربه.

وكلمتا آبيسينيا *Abyssinia* وأثيوبيَّة *Ethiopia* الذائعتان في الألسنة الأُوربيَّة والمتداولتان في الصحف والنَّشرات أروجهما اثيوبية واصلهما آبيسينيا القريبة جدًّاً من كلمة الحبشة والدَّالة علىٰ قبيلة من سكَّانها هاجرت إليها من ساحل البحر الأحمر.

والحبشة مملكة واسعة تقسم من حيث الطبيعة علىٰ أقسام مختلفة أكبرها الصحراء وقليل من أرض زراعية، وجبال شاهقة عامرة غنيَّة بالمياه والأشجار والمعادن المختلفة من ذهب ونحاس وفضَّة.

وقبل الميلاد بزهاء ألف سنة حكمتها حكومة مركزيَّة.

وما أردت أن ألفت النظر إليه كثيراً ها هنا هو أنَّ جميع الأطراف المجاورة لمولد الإسلام أي الحجاز كانت فيها حكومات مركزيَّة ما عدا الحجاز نفسها كانت متخلِّفة في هذا الميدان، إلاّ أنَّها قفزت صوب الحكومة المركزيَّة ذات الحرِّيَّة والتشاور.

ونريد الآن أن نعرف كيف طويت هذه الفاصلة طيَّاً سريعاً؟ وما عامل هذه السُّرعة؟ وما مدىٰ ملاءمة هذا العامل لأحوالنا اليوم؟

عاش في الحبشة أقوام متناثرة، وسادتها حكومات محليَّة مختلفة.

وهيمن عليها نظام ملكيٌّ مركزيُّ الإدارة مقتدر أطاعته الحكومات المجاورة المستقلَّة وذكر اليعقوبيّ في تاريخه الذي كتب في القرن الثالث الهجريّ أسماء كثير من هذه الحكومات المستقلَّة، وأنَّها جميعاً تخضع لحكومة النجاشيِّين المركزيَّة، وتدفع لها الضريبة[1].

وسكَّان الحبشة اليوم عددهم ٢١ر٦٠٠ر٠٠٠ نسمة علىٰ وفق آخر إحصاء[2] منهم ١٢ر٥ مليون مسلم والباقون مسيحيّون.

وشعبها يضمُّ عناصر شتَّىٰ منها عنصر خاصٌّ من مهاجري اليمن وإليهم ينتمي النَّجاشيُّون فالحكومة المركزيَّة إذن بيد اليمانيِّين المهاجرين.

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ١/١٩٣.

(٢) هذا الإحصاء في الستينيَّات، وعددهم علىٰ وفق إحصاء ١٩٨٦ هو ٤٢ر٢٨٩ر٠٠٠ نسمة.

ويصل ملكها الأعظم الحاضر[٣] نسبه إلىٰ النبيِّ سليمان وملكة سبأ.

وقد جاء في قانون الحبشة الأساسيِّ لسنة ١٩٣٢ م أنَّ: ملك الحبشة مستقرٌّ في هذه الأسرة المتعدِّدة أسماء طوائفها.

وملك الحبشة الأعظم الفعليُّ هو من سلالة سليمان وزوجه اليمانيَّة ملكة سبأ».

ولا أحد يعرف قطعاً صحَّة هذه الادِّعاء أو بطلانه.

فقد طالعت الأسناد الخاصَّة بالحبشة، لكنِّي لم أجد دليلاً يثبت هذه الدَّعوىٰ، إلاّ في مرجع مفصَّل استعمل تعبير (يقال) علامة علىٰ شكِّه أيضاً.

وابتدىء التاريخ المختصر المؤلم فأقول: كانت الحبشة حتَّىٰ القرن الرابع للميلاد وثنيَّة فيها ديانات محليَّة، ونفوذ يسير لليهود غير جدير بالذكر.

من هنا كان لليهود نفوذ في اليمن، ورواح إليه ومجيء منه.

ويشاهد في التاريخ أنَّ دين اليهود قد عرف في الحبشة، لكنَّ أتباعه كانوا قليلاً.

أمَّا دين الحبشة الرسميُّ، فهو الوثنيَّة حتَّىٰ سنة ٣٤٠ قبل الميلاد، فقد بعثت كنيسة الاسكندرية أُسقفاً سورياً عالي الهمَّة لتبليغ النصرانيَّة في الحبشة، فنجح نجاحاً عجيباً في تنصير عدد منهم قبل ظهور الإسلام بما بين ٢٥٠ و ٢٤٠ قبل الإسلام.

(٣) أراد به هيلا سيلاسي الذي عزل عن الحكم سنة ١٩٧٤ م.

فلم يزد وجود المسيحيَّة في الحبشة علىٰ قرنين ونصف قرن قبل ظهور الإسلام، بيد أنَّها تدرَّجت في بناء الكنائس وجعل الحبشة قاعدة من قواعدها، إلىٰ أن أصبحت بقول أُسقف من كتَّاب الكنيسة: «الحبشة جزيرة مسيحيَّة في بحر الشِّرك».

وذلك لأنَّه ليس في أطراف الحبشة بلد مسيحيّ.

وتقدَّمت المسيحيَّة في الحبشة حتَّىٰ صار الملك الأعظم فيها مسيحيًّاً.

وكان النجاشيّ الذي بعث الرسول الأكرم في زمانه مسيحيًّاً رسميًّاً، إلّا أنَّه علىٰ حدِّ قول كاتب أوربيٍّ: انقطعت الصلة بين الحبشة والمسيحيّة بظهور الإسلام انقطاعاً دام تسع مئة سنة صار المسيحيُّون فيها لا يعلمون أنَّ في الطرف الآخر من الدّنيا بلداً مسيحيًّاً يسمَّىٰ الحبشة.

الاكتشاف الثاني للحبشة

ما ذكرته من أنَّ المسيحيين غاب عنهم أنَّ هناك بلداً مسيحيّاً اسمه الحبشة يجرُّنا إلىٰ ما جاء في إحدىٰ الوثائق أنَّ ملك البرتغال الأعظم جان الثاني سمع أنَّ في الطرف الآخر من الدّنيا بلداً مسيحيّاً يحكمه ملك أعظم ثريٌّ، فصمم علىٰ رؤيته من دون أن يعرف شيئاً عنه ولا عن بلده.

فكلَّف رجالاً من عشَّاق البحر المغامرين بآكتشاف هذا البلد، فبلغها اثنان منهم، وعادوا إلىٰ ملك البرتغال الأعظم بنبئها، وأنَّ ملكها الأعظم استقبلهما بحرارة وحفاوة وأكرمهما خير إكرام، ورجاهما أن يبعث الملك البرتغالي الأعظم إليه بقوَّة يستعين بها علىٰ مواجهة جيرانه المسلمين.

فكان هذا أوَّل معاهدة أو مفاوضة عسكريَّة بين البرتغال والحبشة.

وبعث ملك البرتغال الأعظم أسطولاً بحريّاً لحماية الحبشة بقي في جوارها ستَّ سنوات.

ومن الهدايا التي سرَّ بها الأُسطول الحبشة فريق من المبشِّرين عشعش فيها وانهمك في فعالياته التبشيريَّة، وكان رئيسه كاتباً وقسِّيساً ألَّف كتاباً مفصّلاً عن الحبشة قال عنه الكتّاب الأُوربيّون المتأخِّرون: إنَّه لأثمن مصدر لدينا عن الحبشة وتاريخها.

ثمَّ عاد ذلك الفريق إلىٰ بلاده.

وبعد سنوات استنجد ملك الحبشة الأعظم بالبرتغال، فجاءه أسطول عظيم من أساطيلها المستقرَّة في الهند.

وضمَّ الأسطول الجديد ٤٥٠ حامل بندقيَّة، وهم في معارك ذلك الزمان قوَّة مهمَّة، وعدَّة مدافع.

وبتلك النجدة حمل الأحباش علىٰ جيرانهم المسلمين وأزاحوهم عن مزاحمتهم.

ومذ ذلك الحين شغلت البلدان الأُوربيَّة بالحبشة، فقامت علاقة بينها وبين الإنجليز، ثمَّ بينها وبين إيطالية.

وتعهَّدت الحبشة للإنجليز بفتح مرفأ لهم علىٰ البحر الأحمر لمساعدة قوَّتهم البحرية المتَّجهة إلىٰ الهند.

وإذ أطلَّ القرن التاسع عشر استقرَّت قدم الاستعمار في الحبشة.

وبدأ النزاع بين ملوك الحبشة والإنجليز في هذا القرن بنحو عجيب.

وربَّما حدث بين الحبشة والبرتغال.

ثمَّ استعمرتها إيطالية رسميًّا.

وهذه حالها إلىٰ أوان ما سمِّي استقلال الحبشة.

ولسان الحبشة من الفصيلة السبئيّة، وهو ممتزج بألسنة محليَّة مختلفة، فالنّاس فيها يتحدَّثون بسبعين لساناً تصل إلىٰ مئتين إذا أُضيفت إليها اللهجات المحليَّة.

ولسان الدولة الرسميُّ هو الأمهريّ الذي هو من الألسنة الساميَّة.

الحبشة قبل ظهور الإسلام

في حدود قرن قبل الإسلام كان للحبشة دور فاعل في بلاد العرب أوسع من سائر جيران العرب.

ففي حدود قرنين سبقت الإسلام يعني أواخر القرن الميلاديّ الرابع تهوَّد ملك اليمن، وبتهوُّده أصبحت اليهوديّة دين اليمن الرسميّ.

وبلغ الحال أن صمَّم ذو نواس ملك اليمن علىٰ ضغط كلٍّ من لا يتهوَّد، واتّفق أن بلغه نفوذ المسيحيَّة في نجران، فجيّش جيشاً لمهاجمتها وضغط أهلها وتقتيلهم.

ومن فعله الشنيع بهم حفره أُخدوداً لهم وإحراقهم فيه أحياء.

ونجا أحدهم، وفرَّ إلىٰ ملك الروم الأعظم واستثاره مستنجداً علىٰ ذي نواس، فكتب إلىٰ ملك الحبشة الأعظم الذي علىٰ دينه، فوجَّه هذا جيشاً بقيادة أرياط الذي كان بين ضبَّاطه رجل ذو بأس اسمه إبرهة.

فهزم ذا نواس الذي قذف بنفسه وبفرسه في البحر، وأصبحت اليمن مستعمرة حبشيَّة يحكمها ارياط الذي سعىٰ في نشر المسيحيَّة فيها.

وفي ذلك الوقت حدثت بين ارياط وابرهة قصَّة حلوة تستحقُّ الذِّكر:

كان إبرهة ضابطاً ممتازاً في جيش ارياط، وكان يراه غير جدير

بالقيادة، فقرَّر أخذ القيادة منه، فآنتفض عليه، وانقسم الجيش علىٰ قسمين: أحدهما معه، والآخر مع ارياط.

واستعدُّوا للقتال، وقبيل اقتتالهم بعث إبرهة إلىٰ أرياط بكتاب أن لا معنى لاقتتال الأحباش والخلاف بيني وبينك، فآبرز إليَّ نقتتل وأيُّنا انتصر له القيادة.

وبرز إليه أرياط وقتل، وآلت الأمور إلىٰ إبرهة.

وإذ سمع ملك الحبشة الأعظم هاج هياجاً عظيماً واستنكر جرأة ضابط من الدرجة الثانية علىٰ آمره، وأقسم علىٰ سحق اليمن ونتف شعر إبرهة.

وبلغت إبرهة رسالة مفادها أنَّه ابتلي بغضب الملك الأعظم، فعمد إلىٰ التلطُّف إليه، فحلق شعره ووضعه في جعبة صرِّغت بالتراب ووضعت في صندوق صنع من تراب اليمن.

وملأ الصندوق تحفاً وهدايا نفيسة وبعث به مشفوعاً برسالة إلىٰ النجاشيّ أن: سمعت أنَّ الملك الأعظم مغضب عليَّ وأنَّه أقسم أن يفعلنَّ بي ما يفعل، وها أنذا طوع إرادته.

فقد اقتتل اثنان من ضبَّاطك غلب أحدهما الآخر، وما مسَّ حرمتك شيء.

ومن أجل أن تبرَّ قسمك الذي لن تحنثه حلقت شعري كلَّه، ووضعته في هذه الجعبة أرجوك أن تفعل به ما تريد.

وأمَّا بشأن تراب اليمن، فذرّوه في سعة الغرفة، ودوسوه ما شئتم.

وأُعجب النجاشي بدهاء إبرهة، وثبَّته في موقعه.

وإذ استقرَّ إبرهة في اليمن شرَّع في تنصيرها بالإكراه، واجتثاث اليهودية وغيرها منها.

وقال له المقرَّبون منه: تستطيع أن نفعل كـلَّ شيء لكن في حدود اليمن، فالعرب قلوبهم متعلِّقة بالكعبة لا تحيد عنها لطول ما تعلَّقت بها، فلا بدَّ لك من فعل شيء لصدِّهم عنها.

وكان ابرهة قد عمرَ كنائس في غاية الجمال في عاصمة اليمن وزيَّنها بأحلىٰ الرُّخام والأحجار الجميلة الباقية ذكرىٰ من صرح ملكة سبأ.

إلَّا أنَّ كلَّ ذلك الجمال وتلك الروعة والفخامـة التي أفرغهـا إبرهة علىٰ الكنائس في العاصمـة اليمانيَّـة لم تستطع أن تستهـوي الأنظار وتصرفها إليها عن الكعبة التي هي بناء متواضع.

وصمَّم إبرهة علىٰ الحدِّ من تأثير الكعبة في النفوس.

حادثة عام الفيل

وشاع بين الناس أنَّ إبرهة مصمِّم علىٰ هدم الكعبة، فثارت ثائرة العرب، حتَّىٰ إنَّ أحدهم حين سمع أنَّ إبرهة بصدد هدم الكعبة وإعلاء شأن كنائس اليمن دخل اليمن، وتربَّص حتّىٰ خلت كنيسة، فتغوَّط فيها نكايةً وزراية.

وأغضب فعله المسيحيّين وإبرهة الذي زادوه شرًّاً بقولهم له: هكذا يكرم العرب كنائسك.

وإذ سأل عن علَّة ذلك قيل له: علَّية أنَّهم حماة الكعبة وقد بلغهم أنَّك تريد خرابها.

فقال: إذا كان سماعهم شائعة بلا واقع، فإنِّي سأجعلها حقيقة يلموسنها بأيديهم.

فجهَّز قوَّاته وعبَّاها وسار بها إلىٰ مكّة، فصادف مقاومة من القبائل بدَّدها جيشه الجرَّار.

ولمّا اقترب من مكَّة بعث أن آتوني بحاكم مكَّة وكبيرها أيًّاً كان، فقيل لرسوله: إنَّه شيخ كبير اسمه عبد المطَّلب بن هاشم.

وقبل وصول رسول إبرهة إلىٰ مكَّة استحوذ جيش إبرهة علىٰ نعم الناس جميعاً ومنها مئتا بعير لعبد المطَّلب.

وحين أُخبر عبد المطَّلب بطلب إبرهة، ذهب إليه، فإذا بالوجهاء مصطَّفين بين يديه جالسين علىٰ الأرض، وهو في صدر المجلس علىٰ سرير.

وتفيد المصادر التاريخيَّة بأنَّ إبرهة قد استعظم شأن عبد المطّلب إذ دخل عليه، ووقف إجلالاً له، وتخلَّىٰ عن سرير أُبَّهته، وجلس علىٰ فراش على الأرض وأجلس عبد المطّلب معه.

ويذكر المؤرِّخون أنَّ هذا من بركة نور النبوَّة الذي كان في أصلاب الرسول الأكرم.

وإذ استقرَّ عبد المطَّلب قال له إبرهة: ما أردتُ عرضه عليك هو أن لا شأن لي بأهل مكَّة، وما جئت لمحاربتكم، فقد جئت لأخرب هذا البيت وأعود، فإن لم تزعجوني أنجزت غايتي ومضيت من غير سفك دم.

ونصح له عبد المطَّلب ألّا يفعل، فلم يقبل.

وبعد يأسه من قال له: فلم استدعيتني إذن؟

فقال: أردت أن أعرف ألك حاجة فأقضيها؟

وظنَّ بأن عبد المطَّلب سيطلب منه في الأقلِّ ما في البيت من كنوز، أو أن ينهض هو وقومه بتخريب هذا البيت، غير أنَّه لم يقل له عند يأسه منه: لا حاجة لي إليك سوىٰ أن تردَّ عليَّ مئتي بعير استاقها جيشك.

فقال إبرهة لمترجمه: قل له: لقد أكبرتك ساعة وردت عليَّ، حتّىٰ إنِّني نزلت عن سريري واستقبلتك، وجلست علىٰ الأرض إكراماً لك وأجلستك معي، إلّا أنَّك صغرت قدرك عندي بطلبك إليَّ أردَّ عليك مئتي بعير، وقد حسبتك تشفع إليَّ في مدينتك وقومك.

هنا قال عبد المطَّلب كلمة ما تزال حيَّة في التاريخ، وهي: «إنَّ للبيت ربَّاً وأنا ربُّ الإبل».

وهزَّت هذه الجملة إبرهة هزَّاً شديداً غير أنَّ هذا الرجل الحبشيَّ المصمِّم علىٰ شيء لا يفرُّ من الميدان.

وأمر بإعادة الإبل إلىٰ عبد المطَّلب، فعاد بها إلىٰ مكَّة، وأمر أهلها

أن يخرجوا منها ويلوذوا بالجبال لئلاّ ينال أحداً ضررٌ من ذلك الجيش.

وصباح اليوم اللاحق عزم إبرهة علىٰ هدم الكعبة بجيشه الذي يتقدمه فيل.

وعندئذ حدث ما رواه المؤرِّخون العرب والأوربيّون بتعبير مختلف، فذكروا أنَّ الله ابتلاهم بالجدريّ والحصبة، فهلكوا.

وهذا ما نقله مؤرِّخو اليونان الذين أتَّكأ عليهم سائر المؤرِّخين الأوربيين فيما بعد.

ومعلوم أنَّ الجدري يثقِّب الأبدان وتبقىٰ آثاره فيها، وللحصبة أثرها المعروف.

وذكر مؤرِّخو العرب المرضين علىٰ نحو ما ذكره القرآن الكريم، فقد كان شائعاً بينهم أنَّ جماعة منهم أسرهم إبرهة شاهدوا حين التوجُّه لمهاجمة الكعبة طيراً صغاراً كطير الماء ملأت السماء وقذفت ذلك الجيش بحجر صغار، فأهلكته.

ويقول هؤلاء: إنَّ الجدريَّ والحصبة لم يتفشَّيا في مكَّة قبل تلك الحادثة.

وهذا ما أقرَّه غيرهم.

وأُصيب إبرهة بالجدريّ وألم منه ألماً شديداً، وبقي حيَّاً حتَّىٰ وصل إلىٰ اليمن، فمات.

وهذا ما ذكره القرآن الكريم في سورة الفيل القصيرة، وهذه هي:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ألم تر كيف فعل ربُّك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجِّيل فجعلهم كعصف مأكول﴾.

وتتفَّق روايات المؤرِّخين اليونان التي هي مصادر المؤرِّخين الأوربيِّين مع روايات المؤرِّخين العرب لهذه الحادثة وحكاياتهم المحلِّيَّة عنها وكلُّها تتَّفق مع رواية القرآن الكريم.

بيد أنَّ المؤرِّخين اليونانيِّين لا يذكرون الطير.

ومن أراد أن يحكم بإنصاف فلا بدَّ له من الأخذ بقول العرب الذين رأوا الحادثة بأعينهم لا بقول من كانوا بعيدين عنها مئات الفراسخ.

فقول من شاهدوا الحادثة ـ بغضِّ النظر عن القرآن الكريم ـ مورد احترام.

وعاد من بقي من الحبشة إلىٰ اليمن بمن فيهم إبرهة، وبقيت مكَّة وما جاورها هائنة علىٰ حالها.

فالعلاقات بين حكَّام اليمن الأحباش وأهل مكَّة والمدينة كانت داكنة علىٰ الرَّغم من التبادل التجاري بين العرب والحبشة حتَّىٰ ظهور الإسلام.

الهجرة إلىٰ الحبشة

زاد الضغط للمسلمين بمكَّة في السنة الخامسة أو السادسة للبعثة، فقال الرسول الأكرم لأصحابه: إنَّ المشركين لا يستطيعون النيل منِّي ولا من المقرَّبين إليّ بوجود أبي طالب، لكنَّهم ينالون منكم أنتم الذين لا ملاذ لكم، فهاجروا إلىٰ الحبشة.

والهجرة إلىٰ الحبشة من قضايا الإسلام المهمّة، فمع أنَّ هجرة الرسول إلىٰ المدينة هي بداية تاريخنا، فإنَّ الهجرة إلىٰ الحبشة قضيَّة غاية في الأهميَّة أيضاً.

وهاجر اثنا عشر مسلماً إلىٰ الحبشة والرسول مستمرٌّ في الدعوة إلىٰ الإسلام في مكَّة.

فهل هب هؤلاء للاستنجاد بملك الحبشة الأعظم؟

لا. لم يكن مثل هذا في تاريخ الإسلام.

فالرسول أخبرهم بأنَّ النجّاشيّ ملك حرٌّ، وأنَّهم يستطيعون العيش في كنفه آمنين إلىٰ حين محتفظين بدينهم.

يعني أنَّ الرسول الأكرم حوَّلهم من مشرق الإسلام الضاغط لهم إلىٰ ديار النصارىٰ التي لا يؤذون فيها.

فغايته كانت سلامتهم وراحتهم لا الدعوة إلىٰ الإسلام.

وإذ اشتدَّ قهر المشركين للمسلمين أمرهم الرسول أن يهاجروا هجرة كبرىٰ، فمضىٰ سبعون رجلاً ما عدا النساء والأطفال، ولعلَّ هذا كان ثلثي المسلمين الذين كانوا في كنف الرسول الأكرم. وهذه الهجرة تضع في

الذِّهن أنَّ الرسول لو لم تتح له الهجرة إلى المدينة المنوَّرة لكان قد هاجر إلىٰ الحبشة بشهادة تخطيطه لهجرة المسلمين الأوائل.

فالهجرة الأولىٰ كانت إنقاذاً لمن لا ملاذ لهم، والهجرة الثانية لم تكن كذلك وإنَّما كانت لغاية أكبر من رفع الأذىٰ، إذ ضمَّت من لهم ملاذ وحماية من المسلمين كأمِّ حبيبة زوج الرسول وبنت أبي سفيان الذي هو من وجوه مكَّة.

وضمَّت رجالاً أُولي شأن كبير كجعفر بن أبي طالب.

وهجرة النساء والأطفال في المرَّة الثانية تدلُّ علىٰ أنَّ الرسول الأكرم كان له غاية مهمَّة يكشف عنها ذهابه إلىٰ الطائف وإعراضها الذميم عنه وعدم تعويله علىٰ المدينة.

ولو كان معوِّلاً علىٰ المدينة أو غيرها لما اختار الحبشة، بل إنَّه لم تكن له صلة بها تحمله علىٰ نقل دعوته إليها، فما كان يعرف أحداً أسلم من أهلها.

ولكنَّه لمّا عرف أنَّ المهاجرين الأوائل رأوا الحبشة علىٰ ما سمعوا عنها، واطمأنُّوا فيها قرَّر أن يبعث فئة كثيرة أُخرىٰ، حتّىٰ إذا غُلِّقت الأبواب كلَّها في مكّة، وانفتحت كوَّة أمل في الحبشة ذهب إليها الرسول نفسه ومن بقي معه.

وهذا الاحتمال قويٌّ جدَّاً في تاريخ الإسلام، وهو يكشف عن أثر الحبشة في هذا التاريخ.

وقد هزَّت الهجرة الثانية المشركين هزَّاً قويَّاً، فقد خشوا أن ينظِّم هؤلاء المهاجرون صفوفهم ويعودوا إلىٰ مكَّة بقوَّة عظيمة، وليس هؤلاء بإبرهة، وإنَّما هم أهل مكَّة، وهم أولىٰ بها، ولهم أن يخرجوا من أخرجهم منها.

ولهذا أرسلوا عمر بن العاص وعمارة بن الوليد بتحف ثمينة وهدايا نفيسة إلىٰ النَّجاشي ليرجواه أن يسلِّمهم اولئك المهاجرين.

فأتَّهما المهاجرين شتَّىٰ التُّهم بين يديه غير أنَّ بيان جعفر بن أبي طالب أخزاهما عنده، وضمن الأمان والكرامة للمسلمين في دولته، فقد استقرُّوا فيها مطمئنِّين إلىٰ أن استدعاهم الرسول الأكرم بعد قيام دولته في المدينة.

كلُّ هذا يوضح ما لجار العرب من الدرجة الثانية أعني الحبشة من دور مهمٍّ في تاريخ الإسلام.

أسئلة وأجوبة

*** هل أصاب الوباء الذي ورد في قصَّة إبرهة العرب في مكَّة أو ما جاورها؟**

يفيد المؤرِّخون العرب بأنَّ ذلك لم يقع في مكَّة قبلاً، وأنَّه ما أصاب أحداً من أهلها.

وهذا ما تضافرت عليه القرائن التاريخيَّة، حتَّى اليونانيُّون يؤكِّدونه.

*** هل استطاع المهاجرون أن يجدوا مكانتهم الدَّعوتيَّة في الحبشة؟**

لا. فالهجرة إلىٰ الحبشة كانت استئماناً لا تبليغاً بخلاف الهجرة إلىٰ المدينة.

فغاية هجرتهم أن يجدوا مأمناً لهم علىٰ حياتهم ودينهم.

*** أما أسلم حبشيٌّ إبَّان وجود المهاجرين في الحبشة؟**

ربَّما حدث ذلك غير أنَّهم لم يكونوا مكلَّفين بالدعوة.

وأنا لا أعتقد بأنَّ كلَّ ما أُنجز كان بأمر ربَّانيٍّ، فكثير من تقدُّم الإسلام كان بتدبير الرسول الأكرم وحسن قيادته، فإذ رأىٰ نفسه والمقرَّبين إليه في خطر وهم في حماية أبي طالب فكَّر بإنقاذ من لا حامي لهم من المسلمين، ورأىٰ أنَّه إذا أُغلقت بوجهه الأبواب هاجر هو والمسلمون جميعاً إلىٰ الحبشة وعاشوا فيها علىٰ وفق دينهم بأمان.

وهذا لا يستدعي إثارة البيئة الجديدة عليهم.

وبهذا تتجلَّىٰ روعة التدبير النبويِّ الحكيم البعيد النظر.

*** لِمَ حميت الكعبة وهي دار الأصنام في ذلك الوقت؟**

أتزال الكعبة بيد إبرهة خير، أم تبقىٰ حتّىٰ يأتيها رجلٌ طاهر يذهب عنها ماكدَّر طهرها ويحفظ عليها أصلها الطاهر؟

أيُّما أحسن أن تهدم الكعبة أم أن تطهَّر؟

صحيح أنَّه يُمكن إعادة بنائها، لكنَّه ليس من الصحيح أن تهدم بيد مشركٍ جاء الإسلام لتطهير دينه المسيحيَّة من الشِّرك.

ما الفائدة من حلول شرك محلَّ آخر؟

وليست المسألة بناء بيت وهدمه، فالطين ونحوه لا دخل له في الصلاح والفساد، وإنَّما الفكر هو المسؤول عن هذا وذاك.

والدليل علىٰ ذلك أنَّ الكعبة هدمت في زمن الرسول، وأُعيد بناؤها.

ليس المهمُّ هدم الكعبة، وإنَّما المهمُّ هو من يهدمها وكيف ولما؟

وقول عبد المطَّلب: «إنَّ للبيت ربَّاً يحميه» ودعوته الناس إلىٰ اللواذ بالجبال أزالا من الأذهان فكرة الأصنام وارتفعا بها إلىٰ الإله الواحد العظيم القادر.

وعلىٰ الرغم من ظهور الوثنيَّة في ذلك الزمان، فإنَّ بني هاشم وفي طليعتهم عبد المطَّلب لم يتأثَّروا بها بإجماع المؤرِّخين الإسلاميّين وغيرهم، فقد أفادوا بأنَّه لمَّا خرج الناس إلىٰ الجبال فراراً من إبرهة قال عبد المطَّلب: «لا أبرح من حرم الله، ولا أعوذ بغير الله»[1].

غرضي هو البيان عن شرف القائمين علىٰ الكعبة ودناءة مهاجميها.

---

(١) تاريخ اليعقوبيّ: ٢٥٢/١.

فأين عبد المطّلب الذي ذكرنا بعض فعله وقوله من إبرهة الذي كان يرغم اليمن علىٰ النصرانيَّة؟

أي أنَّه لو خرِّبت الكعبة الملأىٰ من الأصنام بيد من لا أثر للصنم في فكره وفعله، لما كان كما لو ارتكبه متسلِّط يسخِّر كلَّ شيءٍ لبيان قدرته.

*** لِمَ أُقيمت الكعبة في مكَّة؟**

لا يمكن القول بهذا السبب أو ذاك، ولكن جاء في نهج البلاغة: «ألا ترون أن الله ـ سبحانه ـ اختبر الأوَّلين من لدن آدم ـ صلوات الله عليه ـ إلىٰ آخر الآخرين من هذا العالم، بأحجار لا تضرُّ ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع.

فجعلها بيته الحرام (الذي جعله للناس قياماً)، ثمَّ جعله بأوعر بقاع الأرض حجراً، وأقلِّ نتائق الدُّنيا قدراً، وأضيق بطون الأودية قطراً، بين جبال خشنة، ورمال دمثة، وعيون وشلة، وقرى منقطعة، لا يزكو بها خفّ، ولا حافر ولا ظلف.

ثمَّ أمر آدم ـ عليه السلام ـ وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابة لمنتجع أسفارهم، وغاية لملقىٰ رحالهم تهوي إليه ثمار الأفئدة من مفاوز قفار سحيقة، ومهاوي فجاج عميقة، وجزائر بحار منقطعة، حتَّىٰ يهـزُّوا مناكبهم ذللاً يهلِّلون لله حوله، ويرملون علىٰ أقدامهم شعثاً غبراً له»[1].

---

(١) نهج البلاغة: خ ١٩٢ التي تُسمَّىٰ القاصعة.

عوامل النجاح

تابعنا في المباحث الماضية البيئة السياسيَّة والاجتماعيَّة التي ظهر فيها الإسلام، وعرفنا أوضاع العرب، ولا سيَّما الحجاز مولد الإسلام، واطَّلعنا علىٰ أحوال اليمن وعُمان، ثمَّ العراق الذي كانت عاصمتُه الحيرة، ووقفنا علىٰ الشام ولبنان والأردن الذي كان جزء منه تحت نفوذ الفا سنة.

وبعدئذ عرضنا لجيران العرب في ذلك الزمان ومنهم مملكة إيران الكبرىٰ التي كانت تشمل إيران اليوم وقسماً من أزبكستان وأذربيجان وروسية وتركية اليوم.

ومنهم مملكة الروم الكبرىٰ التي كانت تشمل سورية ولبنان وتركية وبلاد البلغار واليونان.

ومنهم مصر التي كانت في جنوب مملكة الروم متمتِّعة بالعمران اليسير، وما حصل فيها فهو من ثمار الإسلام.

وآخرهم الحبشة التي كانت تشمل الحبشة القائمة اليوم وطرفاً من السودان.

وما كان للمدنيَّة وجود خارج هذه الدائرة عند ظهور الإسلام، إلّا في الهند والصين اللتين كانتا بعيدتين عن الإسلام وقليلتي الارتباط به جدًّاً مع وصول المبلِّغين إلىٰ التُّبَّت في عهد الرسول وأبي بكر.

وهذا ما لم نعرض له.

ونريد الآن قطف النتيجة من هذه المباحث.

ما نقتطفه من الأبحاث السابقة هو أنَّ النهضة الإسلاميَّة بدأت في

أرض هي بالإضافة إلىٰ الوطن الإسلاميِّ الحاضر مركزه من الناحية الجغرافيَّة وقلبه من الناحية الرُّوحيَّة.

فبدايتها في ذاك الجزء الضئيل التمدُّن الخالي اليد من الحكومة والنظام والعلم والصناعة والثروة، في حين كان جيرانه متقدِّمين أُولي حضارة ونظام ولا يهتمّون به.

فخسرويرويز قال لواليه علىٰ اليمن باذان: امض إلىٰ يثرب وانظر من هذا الذي يجرؤ علىٰ الكتابة إليَّ أن: يا كسرىٰ هلمَّ إلىٰ التوحيد لتمضي إلىٰ الجنَّة.

كيف خاطبني متخطِّياً سلسلة المراتب من دوني؟

من هذا الذي يكتب إلىٰ ملك إيران الأعظم؟

هكذا كانت البلاد التي أشرق فيها الإسلام ضئيلة الشأن لا قدر لها مقطوعة الصلة بما حولها، فلا ماء ولا نبات، وما كان البحر ينفعها، إذ لا وسيلة للسقي.

وكانت متخلّفة في الثقافة والعلم والسياسة والاقتصاد.

فما هي العوامل التي جعلت النهضة الإسلاميَّة تسود العالم في ربع قرن وتسخِّر ما حولها؟

يمكن لمس ذلك في شيئين:

الأوّل هو الإنسان العربيّ، فكيف أثَّر فيه الإسلام وقلبه تماما؟

وماذا صنعت به هذه النهضة، فاستمات في تبليغها؟

وكيف تحوَّل سكّان الجزيرة المتفرِّقون إلىٰ يد واحدة منظَّمة الإرادة والفعل؟

وبم استطاع العربيُّ أن يقيم حكومة ظلَّت مثالاً لطموح الإنسان؟

وها أنتم أولاء ترون عمر بن الخطّاب في كتب التاريخ سياسيّاً مقتدراً فطناً نشطاً.

الثاني هو الإسلام نفسه، فماذا فيه من طاقة جذب وتأثير جعلته يستولي علىٰ القلوب؟

ومن الأسئلة عن هذه التفاعلية ما طرحه أحد الأصدقاء من أنّها حصيلة نداء الإسلام إلىٰ الحرِّية والانعتاق من كلِّ وهم.

ولو أنَّ كلَّ نهضة امتلكت روح الحرِّية وحطم الأغلال لتقدَّمت.

قلت له: دع الجواب عن هذا السؤال حتّىٰ تسنح ساعته.

وها أنذا أُشير إلىٰ ذلك مستنداً إلىٰ قراءتي الطويلة للتاريخ، ففي حدود سبعين أو ثمانين سنة قبل الإسلام دعت الديانة المرذكيّة إلى التحرُّر وتحطيم القيود، لكنّها لم تبلغ ما بلغه الإسلام من تغيير النفوس خير تغيير.

وديانة ماني كانت نهضة فكريَّة دامت قرنين أو ثلاثة، وقيل: دامت خمسة قرون قبل الإسلام في إيران دون أن تبلغ شيئاً جديراً بالذِّكر.

فماذا حدث، فتأثَّر ذلك العالم المتمدِّن كلُّه تقريباً تأثُّراً عميقاً بنهضة انطلقت من منطقة مجهولة خاملة الذكر؟

ولأهميَّة هذا الجزء من البحث أنقل جزءاً من قول كاتب أُوربيٍّ ورد في دائرة المعارف البريطانيَّة لنعرف رأي المخالفين للإسلام، وهذا هو الجزء المقصود:

لو استبقيت قوَّة مسيحيَّة صغيرة في ديار العرب، لاستطاع ملك الحبشة الأعظم وحكومته المسيحيَّة أن يدوسوا محمَّداً في مهده ويقمعوا النهضة التي غيَّرت الأوضاع والأحوال السياسيَّة والدِّينيَّة والحضاريَّة تغييراً ثوريّاً».

هذا هو رأي كاتب مسيحيٍّ تتجلَّىٰ مخالفته للإسلام في قوله: «لقد نهب محمَّد من مهده».

إنَّه لتعبير عن الحقد الحاقد علىٰ الإسلام.

فمن العجب العجاب أن يرىٰ مفكِّر أنَّ بإمكان فئة مسيحيَّة صغيرة أن تطفىء نوراً لم تستطع عواصف السنين الطويلة إطفاءه.

عوامل النجاح

ما هي عوامل نجاح الإسلام؟

الأوّل: اليقين.

فما تمتَّع به الرَّسول الأكرم من يقين بدعوته إلىٰ الله جعلها تتوغَّل في كلِّ قلب وتستأثر بكلِّ نفس.

ويجب أن نقول: إنَّ النَّصر نوع من أنواع الحظِّ.

الثاني: كفاية القيادة

فقد كان قائد النهضة الإسلاميَّة الرسول الأكرم كفءاً بصيراً بمسؤوليته يعلم ما يفعل وما يدع.

وهذا ما تشهد به سيرته التي أعجبت الكثير من الكتّاب غير المسلمين فأقرُّوا بجدارته الفائقة مأخوذين به وبإحاطته الحكيمة في حياته كلِّها.

الثالث: القدرة.

فقد دلَّت حياة الرسول المفعمة بالكدح الطويل علىٰ قدرته في اتِّخاذ القرار اللازم في مختلف الأحوال وعدم عجزه أو حيرته عند الشدائد التي واجهها ثلاثة وعشرين عاماً إذ خرج من جميع العقبات ظافراً قويَّاً متحمِّلاً.

فحوادث الدَّعوة الفادحة وحوادث الدولة الباهظة تتحدَّث عن حزمه الرشيد وشجاعته النادرة في تسيير الأُمور.

ففي عام الحديبية مثلاً توجَّه المسلمون وهو معهم إلىٰ الحجِّ، فواجهوا ما لم يكن بالحسبان فتبلبلوا إذ منعوا من الحجِّ الذي أُبيح للناس

جميعاً، غير أنَّ الرسول استطاع أن يعقد صلحاً يضمن للمسلمين الحجَّ من قابل ويجنبهم خوض حرب هي عليهم لا لهم علىٰ كلِّ حال، فلو وقعت لقال الناس: انظروا المسلمين لا يرعون حرمة الحجِّ، كما أنَّه ليس معلوماً من ينتصر في تلك الحرب التي لم يكن المسلمون مستعدِّين لها إطلاقاً.

ولو أنَّهم وردوا علىٰ مكَّة ولم يسمح لهم بالحجِّ لخلَّف ذلك في نفوسهم انكساراً عميقاً بيد أنَّ قدرة الرسول الحازمة الواعية أنقذت المسلمين من كلِّ لون من الخسران وحفظت عليهم سلامتهم وهيبتهم وحقَّهم في المستقبل.

ويا لها من حادثة عجيبة هزَّت مشاعر المسلمين هزَّاً عنيفاً، حتَّىٰ إنَّ عمر بن الخطّاب قال فيها: ما شككت في رسول الله طوال عمري مثلما اعتراني يوم الحديبيَّة، فقد وعدنا بحجِّ مكَّة هذا العام، وها نحن لم نحجّ.

وقصَّة صلح الحديبيَّة من التَّجارب المربِّية في تاريخ الإسلام، فقد حلَّ الرسول تلك المشكلة بحزم غاية في الحكمة.

وعاد المسلِّمون إلىٰ المدينة من غير حجٍّ، لكنَّهم أدركوا بعد حين حتَّىٰ الذين أبوا الصُّلح مدىٰ الفائدة العظيمة التي وفَّرها عليهم ذلك الصلح.

فعدم عجزه كان من أهمِّ المزايا الهادية إلىٰ الظَّفر.

الرابع: وعي الوقائع السياسيّة.

فقد قاد الرسول أُمَّته بحساب دقيق يناسب كلَّ مرحلة من مسيرتها،

فطوال ثلاثة عشر عاماً من الدعوة في مكّة لم تحدث مشاجرة مسلّحة بين المسلمين والكافرين إلّا مرَّة أو نحوها.

وتلك المرَّة حدثت في أوَّل الدعوة، إذ كان أحدهم لا يستطيع الصلاة في بيته، لأنَّ أُسرته أو أغلبها من المشركين ويهزءون به.

ولو صلّىٰ في الكعبة لسخر منه الكافرون المجتمعون فيها.

فما كان لهم إلّا أن يهرعوا إلىٰ الجبال المجاورة لمكّة يصلُّون فيها من غير أن يؤذيهم أحد.

وإذ وقف المسلمون للصلاة يوماً مرَّ بهم مشركون سخروا منهم، فما التفتوا إليهم، فاستشاط المشركون غضباً وآذوهم، فأذي سعد بن أبي وقّاص المعروف بشجاعته واتّخذ عظماً من الأرض شدخ به رأس أحد الكافرين، فكادت تلك أوَّل حادثة وقعت دفاعاً عن الإسلام، وكانت شجاراً لا حرباً.

وطوال سنوات الدعوة المريرة في مكّة ضبط الرسول المسلمين ضبطاً حكيماً في بيئة لا يكاد يسلم فيها من ليس له قبيلة تنصره أو جار يجيره، وهذه هي الحال السياسيَّة لبلاد العرب في ذلك الزمن.

حتّىٰ الرسول الذي كان عمُّه أبا طالب سيِّد قريش وأُسرته بني هاشم كان في كنفهم لا يكاد يزعجه أحد هيبة لأقاربه والمرتبطين بهم إلىٰ أن توفّي أبو طالب، وجاء مكانه أبو لهب، فصعب أمر الرسول كثيراً، لأنَّ أبا لهب نفسه مخالف له فضلاً عن سائر الكافرين.

فاضطرَّ إلىٰ البحث عن ظهير له يسدُّ خلَّة أبي طالب وكان عدد المسلمين وقتئذ ما بين ستين إلىٰ مئة فضلاً عن المهاجرين إلىٰ الحبشة، وقد كان الكافرون يرونهم قبيلة من القبائل، وهذا يضفي عليهم قيمة سياسيَّة وقتالية.

ولمّا لم يتيسَّر له ظهير قدير فكرَّ بالهجرة إلىٰ المدينة بعدما اتَّصل بسادة الأوس والخزرج في موسم الحجِّ.

ومن وفاة أبي طالب إلىٰ هجرته وهي مدَّة ليست طويلة كان الرسول في حماية أُسرته بني هاشم الذين عاملهم في هذه المرحلة بما يناسب غياب أبي طالب وظهور أبي لهب فيهم.

وإذ استقبلته المدينة علىٰ حال يقول المؤرِّخون كان القرآن فيها يقرأ في كلِّ بيت.

وهذا لا يعني أنَّ أهلها كانوا قد أسلموا جميعاً، فعاملهم بمنتهىٰ اللطف الذي عامل به أهل مكَّة حتَّىٰ هاجر منها.

فإذ خرج إلىٰ معركة بدر مثلاً قال لهم إنّنا نريد مهاجمة عير لقريش، لكنَّ الناس عند خروجهم من المدينة تحدَّثوا بالحرب، فآستشار الرسول أعيانهم في ذلك.

ويذهب المؤرِّخون إلىٰ أنَّ استشارته ترجع إلىٰ أنَّهم كانوا قد عاهدوه علىٰ دفع الأذىٰ عنه إذا اعتدي عليه داخل المدينة علىٰ نصرته إذا أراد محاربة أحد خارج المدينة.

أي أنَّه استشارهم لأنَّ هذا لم يكن فيما عاهدوه عليه، ليبيِّن لهم أنَّ عهدهم مصون، وأنَّه لا يكلِّفهم ما لا يريدون.

وبهذه الرعاية للعهود وحفظ الحقوق استطاع الرسول نيل النجاح الفريد لدعوته المباركة.

الخامس: الجواب عن الاسئلة اليوميَّة.

فقد كان الرسول يجيب جواباً واضحاً عن أسئلة الناس المختلفة في أحوالهم المختلفة منذ بداية الدعوة إلىٰ لحاقه بالرفيق الأعلىٰ.

فـأنتم لا ترون طـوال وجوده في مكّـة قبل الهجـرة حكمـاً يتعلّق بالحكومة والإدارة والضريبة وصلاة الجمعة والعيد وما شابه.

ولكنكم تجدون الآيات والأحاديث منصبَّة علىٰ التـوحيد والصَّـلاة والأخلاق وما لا يرتبط بالسياسة كثيراً.

وقد عاش مع المسلمين في الدعوة والدولة أخاً رحيماً متواضعاً لطيفاً لكنَّه كان حازماً إزاء التكاليف والحدود مجيباً جواباً واضحاً مقنعاً عن كلِّ ما يواجهه الناس.

السادس: مكارم الأخلاق

فقد صدع الرسول بالحريَّة والأخوَّة والعدالة والمساواة بين الجميع منذ بدء الدعوة.

وكان لهذا الأمر أثره البليغ في نجاح الدعوة في الوصول إلىٰ كلِّ قلب.

السابع: الإحاطة بالوضع السياسيِّ والاجتماعيّ.

فقد ظهر الرسول الأكرم في الحجاز الخالية من حكـومة مـركزيـة ضاغطة، واستثمر مكانة بني هاشم في مكَّة وحماية أبي طالب له، ولهذا لم يجرؤ عليه أحد حتَّىٰ ليلة الهجرة، واجتماعهم من قبائل شتَّىٰ عليه دليل علىٰ هيبته وكرامته عليهم.

وقد جاء هذا بعدما صار الرسول بصدد الهجرة إلىٰ المدينة، وهذا يكشف أيضاً عن تناثر القوَّة في مكَّة في ذلك الوقت.

أي أنَّ الرسول الأكرم كان بإمكانه منازلـة أولئك حتَّىٰ الهـزيمة أو الثبات في وجوههم.

وما كان للقوىٰ الكبرىٰ من إيران والروم والحبشة ومصر وجودٌ في مولد الإسلام وهذا ما تثبته الواقعة التاريخيَّة في السنة السادسة للهجرة إذْ مكَّة بيد الكفّار لم تفتح بعد فيما عقد صلح بين المسلمين والكفَّار، واطمأنَّ الرسول إلىٰ أنَّهم لن يواجهوه بعد إخفاقهم الذريع في معارك كالخندق والأحزاب اللتين جمعوا فيهما كلَّ إمكاناتهم وانقلبوا خائبين.

فقد كتب إلىٰ الملوك والحكّام في البلدان المجاورة يدعوهم إلىٰ الإسلام، فكتب إلىٰ المناذرة في الحيرة والغساسنة في الشام وحاكم اليمن وملك الحبشة وملك مصر وملك الروم الأعظم وملك إيران الأعظم خسرويرويز.

وهذا ما يبيِّن للذين يتصوَّرون أنَّ الإسلام خاصٌّ بالعرب أنَّهم غافلون أو متغافلون عن الحقيقة، إذ أرسل إلىٰ كلِّ حاكم وملك رسولاً بكتابه.

وحينما وصل كتابه إلىٰ خسرويرويز مفتتحاً بقوله:

من محمّد رسول الله إلىٰ كسرىٰ ملك فارس.

غضب غضباً شديداً، وهاج وماج عندما رأىٰ اسمه بعد اسم الرسول وقد اعتاد أن يقدَّم اسمه علىٰ كلِّ اسم.

ومن أراد أن ينشيء بلا تكلُّف، فعل ما فعله الرسول، فقد ذكر الاسمين وأنَّ الكتاب من أحدهما إلىٰ الآخر.

وأوضح أنَّ الكتاب من رسول الله تعريفاً لا تفخيماً وتعظيماً، بينما ذكر بعد اسم كسرىٰ ملك فارس، وهو لقبه النسياسيّ الذي يخاطب به.

فالرسول لم ينقصه شيئاً، لكنَّه استنكر واستكبر، ومزَّق الكتاب ورماه، وكتب إلىٰ باذان واليه علىٰ اليمن أن آبعث جنديين من خدمك إلىٰ يثرب يأتيان بمن يجرؤ علىٰ الكتابة إليَّ مغلولاً.

من هنا نعرف ضعف استخبارات كسرىٰ عن بلاد العرب، ففي ذلك الوقت الذي كتب فيه الرسول إليه كان قد خاض حروباً انتصر فيها انتصاراً باهراً غير واحدة.

فليس هو الذي يعتقله جنديان من خدم وال منكسر ويأتيانه به.

وهكذا كان هرقل ملك الروم الشرقيِّين الذي كان ذا صلة بالعرب، فقد قال ساعة وصله كتاب الرسول: اطلبوا من التجّار العرب الوافدين علىٰ الشام من يخبِّرنا عن محمّد.

فجيء بأبي سفيان الذي بدأ ينتقد النبيَّ بدهاءٍ فهم منه هرقل أشياء مهمَّة عن الرسول، فلم يلتفت إلىٰ نقده، وقال له: كيف نسبه فيكم؟

أبو سفيان: محض هو أوسطنا نسباً. أي: خيرنا وأفضلنا نسبا.

هرقل: فأخبرني عمَّن يتَّبعه أيحبُّه ويلزمه أم يقليه ويفارقه؟

أبو سفيان: قلَّما يتَّبعه أحد فيفارقه.

هرقل: فأخبرني هل يغدر؟

أبو سفيان: لا..[1].

والمهمُّ في هذه القصَّة هو عدم معرفة هرقل ومن تحت يده شيئاً عن الرسول علىٰ الرغم من طول الدعوة وقيام الدولة وما خاضته من معارك ظافرة.

والدليل علىٰ ذلك بحثه عن عربيٍّ حجازيٍّ جاء إلىٰ الشام لعلَّه يخبره بشيء عن الرسول الذي فاجأه بالدعوة إلىٰ الإسلام.

والمُطَّلع علىٰ الإسلام هو النجَّاشي الذي هاجر إليه المسلمون مرَّتين وأحسن مثواهم ومثله المقوقس حاكم مصر.

---

(١) هذه القصة في قصص العرب: ١/١٨٣.

وضآلة استخبارات الممالك الكبرىٰ المجاورة لجزيرة العرب عن هذه الجزيرة والرسول الأكرم تدلُّ علىٰ عدم اهتمامهم بها وبأحداثها، لاستبعادهم الانتفاع بها، وهو من دواعي انتصار الدعوة الإسلاميَّة التي آزرها أيضاً غياب الحكومة المنظّمة عن الحجاز.

ولا أذهب إلىٰ أنَّ كلَّ نهضة تنجح في ضعف الحكومة أو غيابها، فالكثير من النهضات نشأت في ظلال الأنظمة القاهرة، لكن ضعف السلطة وتشتّتها يوفّران علىٰ كلِّ نهضة جوّاً مناسباً لنمائها.

وهذا بنظري أحد عوامل نجاح النهضة الإسلاميَّة الفائق السريع.

وهي نهضة جامعة كاملة تلبّي كلَّ مطامح النفس الإنسانيَّة، وتجيب عن كلِّ سؤالٍ، وتحلُّ كلَّ مشكلة قادها إنسان موقن بعيد الهمَّة صبور دؤوب علىٰ الكدح وقف مع الناس في مراحل الدعوة والدولة يرىٰ ويرشد ويشارك في حلِّ المشكلات وتسدِّد المسيرة التي لا ريب في تأييد الله لها ونصره إيَّاها مع أنَّ النصر الإلهي ليس شيئاً يصبُّ في كأس ويقدَّم لطالبه، وهو ما كرَّره القرآن الكريم، ومنه قوله ـ تعالىٰ ـ ﴿**لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثمَّ ولّيتم مدبرين ثمَّ أنزل الله سكينته علىٰ رسوله وعلىٰ المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذَّب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين**﴾[1].

---

(١) سورة التوبة: ٩/ ٢٥ ـ ٢٦

مصادر الكتاب

١ ـ مكاتيب الرسول ـ علي أحمدي ميانجي ـ طبعة قم ١٩٥٩ م.
٢ ـ ايران باستان ج ٢ ـ حسن بيرنيا ـ طهران ١٩٨٣ م.
٣ ـ الشاهنامه ـ ابو منصور الثعالبي ـ ترجمة هدايت ـ طهران ١٩٤٩ م.
٤ ـ تاريخ التمدن الإسلامي ـ جرجي زيدان ـ ترجمة جواهر الكلام ـ طهران ١٩٧٣م.
٥ ـ الوثائق ـ محمد حميد الله ـ ترجمة الدامغاني ـ طهران ١٩٨٦ م.
٦ ـ تاريخ التمدن ج ٤ ـ ويل دورانت ـ طهران ١٩٨٧ م.
٧ ـ لغت نامه ـ علي اكبر دهخدا ـ طهران ١٩٥٨ م.
٨ ـ نهج البلاغة ـ مما جمعه الشريف الرضي ـ ترجمة فيض الاسلام ـ طهران.
٩ ـ محمد وزما مداران ـ أحمد صابري الهمداني ـ قم ١٩٥٩ م.
١٠ ـ الشاهنامه ـ ابو القاسم الفردوسي ـ طهران ١٩٣١ م.
١١ ـ سير حكمت در اوربا ـ محمد علي فروغي ـ طهران ١٩٦٥ م.
١٢ ـ زبانهای خاموش ـ يوهانس فريدريش ـ ترجمة ثمرة وقريب طهران ١٩٨٦ م.
١٣ ـ تاريخ سلطنت قباد وظهور فردك ـ الفلسفي وبيرشك ـ طهران ١٩٣٠ م.
١٤ ـ تاريخ يهود ايران ج ٢ ـ حبيب لؤي ـ طهران ١٩٦٠ م.
١٥ ـ بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي ـ بيروت ١٤٠٣ هـ. ق.

١٦ ـ فرهنگك فارسي ـ محمد معين ـ طهران ١٩٨١ م.
١٧ ـ تاريخ ايرانيان وعربها در زمان ساسانيان ـ ثيودور نولدكه ـ ترجمة عباس زرياب ـ طهران ١٩٧٩ م.
١٨ ـ قاموس كتاب مقدس ـ جيمس هاكس ـ طهران ١٩٧٠ م.
١٩ ـ تاريخ اليعقوبي ـ احمد ابن أبي يعقوب ـ ترجمة آيتي ـ طهران ١٩٨٧ م.
٢٠ ـ مركز آمار ايران ـ طهران.

الفهرست

الموضـــوع	الصفحة
خارطة الشرق الاوسط في عهد هجرة الرسول (ص)	٥
الاسلوب الانسب للمباحث الدينية	٧
معرفة الدين	٩
الاعتقاد بالدين	١١
ما يجب على من اراد اختيار دين ما	١٦
من أين نبدأ	٢٠
مولد الاسلام	٢٢
موجز عن شبه الجزيرة	٢٤
الوضع الثقافي	٣١
الوضع الاقتصادي	٣٢
الدولة في الجاهلية	٣٤
اليهود	٣٧
المسيحية	٤٠
طوائف قريش	٤٣
ايران القديمة	٥١
موقع ايران الجغرافي	٥٥
التحضر	٥٨
الترقي العلمي	٦٤

الموضـــوع	الصفحة

الدين في العصر الهاخامنشي ٦٦
ايران في العصر الساساني ٧٠
الحكومة الدينية المقتدرة ٧١
الزردشتية ٧٣
النظام الاداري ٧٦
الطبقات الاجتماعية ٧٩
السياسة الخارجية ٨٠
ظهور ماني ٨٢
ظهور مزدك ٨٤
ايران عند ظهور الاسلام ٨٦
اسئلة واجوبة ٨٧
مصر القديمة الحضارة ٩١
القوانين والسنن والدين ٩٤
الحكومة في مصر القديمة ٩٦
الاكتشاف الثاني للحبشة ١٠٧
الحبشة قبل ظهور الاسلام ١٠٩
حادثة عام الفيل ١١٢
الهجرة إلى الحبشة ١١٦
عوامل النجاح ١٢٢
مصادر الكتاب ١٣٥
الفهرس ١٣٧